الباب الثانى

درس الأدب العربي

الفـــــصل الرابع: حياة مصطلح درس الأدب

الفـــصل الخـــامس: اطوار الدرس البلاغى واتجاهاته

الفصل الرابع

حياة مصطلح درس الأدب

ينبغى على الباحث فى مصطلح درس الأدب أن يبدأ بالإشادة بجهود العلماء الرواد فى هذا الحقل، وأهمها تأريخ الأستاذ أمين الخولى مادة بلاغة فى دائرة المعارف الاسلامية المترجمة، فقد كتب المستشرق (شاده) عدة أسطر لاتفيد شيئا، فتصدى الأستاذ أمين الخولى لسد هذا النقص، وله عدة محاضرات عن البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها، وعن الفلسفة وعلم النفس، وعن دور مصر فى تاريخ البلاغة العربية جمعها فى كتابه (مناهج تجديد..) وله كتابه الرائد فى الدعوة إلى التجديد فى الدرس البلاغى (فن القول). أما الأستاذ محمد خلف الله أحمد فقد تقدمت الإشادة بجهوده.

ودراسات الأستاذ أحمد الشايب، ومحاضرة الدكتور طه حسين أمام مؤتمر المستشرقين بالفرنسية التى ترجمها الأستاذ عبد الحميد العبادى وجعلها تمهيدا لكتاب نقد النثر لقدامه بن جعفر ونشرها ١٩٣٣ ثم ١٩٣٨ بلجنة التأليف والترجمة والنشر. ثم تبين عدم صحة اسم الكتاب واسم المؤلف بعد ذلك.

وكتاب البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف، وماقدم به الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى للمصادر البلاغية التى حققها وبخاصة تحقيقه كتاب الايضاح فى شرح تلخيص المفتاح للقزوينى. فهذه الإشادة حق نقر به لمن تلمذنا على أيديهم فى هذا الدرس ولاندعى أن مانكتبه يغنى عن الرجوع إليهم وإلى غيرهم ممن يضيق المقام عن حصر جهودهم.

منهجنا فى هذا الدرس ينفى شائعات لحقت بالدرس البلاغى وينصر حقائق. أما الشائعات فهى إن البلاغة العربية احتذت الفرس واليونان،

ومنها إننا بصدد بلاغات متعددة لفرق إسلامية متصادمة. وإن البلاغة متصلة بالدرس القديم ولاصلة لها بدرس الأدب الحديث.

وأما الحقائق فهى إننا بصدد بلاغة عربية واحدة لأمة مؤمنة توحدت مشاعرها وقيمها وأهدافها واتفقت على نبذ الجاهلية وإعلاء كلمة الله فشرطها الصواب فلا تعارض بين القول والفعل والظاهر والباطن.

ويناقش هذا المنهج تصورات صارت كالبدهيات المسلم بها كالفصل بين النقد والبلاغة، ومثل الادعاء أن البلاغة القديمة لاتعنى بمتطلبات عصرنا الحديث وما استحدثته الحضارة من فنى القصة والمسرح.

ويقف بك هذا المنهج عند مصطلحات الدرس البلاغى المتصفة بالعموم ويعدك بأن يؤرخ لكل تعريف عندما يتعرض له فى درس علوم البلاغة البديع والبيان والمعانى، فقد آلينا على أنفسنا أن ندرس البلاغة العربية من خلال رؤية جديدة أعلناها فى منهجنا فى هذا الدرس.

مفهوم البلاغة

البلاغة من بلغت الغاية، وبلغتها غيرى. وغاية الأديب الاقناع والتأثير معا، لأن الإقناع هدف العالم، والتأثير هدف الساحر. أما الأديب فغايته الإقناع بقضية ببيان مؤثر. وهذا يتضمن أن الحكم بالبلاغة يشمل أطرافا ثلاثة متفاعلة: أدب يصنعه أديب لجمهوره، فغياب أحد هذه الأطراف يجعل الحكم باطلا.

لقد حدد الراغب الأصفهانى فى كتابه (المفردات فى غريب القرآن) دلالات فروع مادة ب ل غ، فربط بين اللغة والمصطلح بطرحه قضايا بلاغية على جانب كبير من الأهـــمية، قال: «البلاغ والبلوغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد. والمنتهى مكانا كان أو زمانا أو أمرا من الأمور المقدرة. وربما يعبر به عن المشارفة عليه. فمن الانتهاء (بلغ أشده) يشير إلى قوله تعالى (يوسف ٢٢): (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) وقوله سبحانه (القصص١٤): (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما) و(بلغ أربعين سنة) يشير الراغب إلى قوله تعالى (الأحقاف١٥): (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين).

(وأيمان بالغة) أى منتهية فى التوكيد. يشير الراغب إلى قوله تعالى (القلم ٣٩) : (أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون) قال: والبلاغ: التبليغ، نحو قوله تعالى: (ومـا علينـا إلا الـــبلاغ المبين) (يـس١٧) والبلاغ: الكفاية، نحو قوله عز وجل: (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته). (المائدة ٦٧) أى إن لم تبلغ هذا أو شيئا مما حملت تكن فى حكم من لم يبلغ شيئا من رسالته. وذلك أن حكم الأنبياء وتكليفاتهم أشد، وليس حكمهم كسائر الناس الذين يتجافى عنهم إذا خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. قال: أما قوله عز وجل: (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف)(الطلاق٢). فللمشارفة فإنها إذا انتهت إلـى أقصى الأجل لايصح للزوج مراجعتها وإمساكها».

تقول: إن الانتهاء إلى أقصى المقصد فى البلاغة أمر من الأمور المقدرة يمر برسالة الأديب، فليتغزل أو يمـــدح أو يهجو أو يرثى أو يصف بشرط أن يدعو إلى الحب وليس إلى الحقد، وأن يدعو إلى تقدير الجميل وليس إلى تسويغ القبيح، وأن يدعو إلى الخير وليس إلى الشر. وليس عليه حرج إذا لم يصل إلى الغاية، يكفيه أن يشارفها.

وهذا مايؤكده معنى الكفاية، فللأديب رسالة يستشعرها من الجو المحيط به، وبهذا جعلوه سفيرا معبرا عن قبيلته متغنيا بأمجادها، ولهذا أيضا جعلت القبيلة العربية أكبر أعيادها يوم ينبغ واحد من أبنائها فى مجال الشعر أو الخطابة.

وتأكيدا لهذه المعانى الدالة على مضمون البلاغة قال الراغب: «والبلاغة تقال على وجهين: **أحدهما** أن يكون بذاته بليغا، وذلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف: ١- صوابا فى موضوع لغته. ٢- وطبقا للمعنى المقصود به. ٣- وصدقا فى نفسه، ومتى اخترم وصف من ذلك كان ناقصا فى البلاغة.

والثانى : أن يكون بليغا باعتبار القائل والمقول له، وهو أن يقصد القائل أمرا فيرده على وجه حقيق أن يبلغه المقول له. وقوله تعالى: (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) النساء٦٣. يصح حمله على المعنيين. وقول من قال: معناه خوفهم بمكاره تنزل بهم، فإشارة إلى بعض ما يقتضيه عموم اللفظ.

فالبلاغة كما يرى الراغب هى درجة التفرد والتميز وهى درجة أرقى من الصواب. وقد أشار بقوله (طبقا للمعنى المقصود) إلى قولهم فى تعريف البليغ: (البليغ من طبق المفصل وأغناك عن المفسر) فشرط الحكم بالبلاغة دقة التعبير عن المعنى بحيث يفهم السامع ما أراد القائل بلفظ واضح الدلالة بحيث لايلتبس المعنى بغيره أو تزيد دلالة اللفظ عما أراد المتكلم أن يوصله للمستمع أو تقصر دونه.

والشرط الثالث فى البليغ عند الراغب أن يكون الأديب صادقا فى شعوره صادقا فى التعبير عما شعر به، فالصدق شرط الجمال وإليه مرجع التأثير لأنه يحاكى الفطرة التى فطر الله الناس عليها. والدليل على اعتماد أمتنا قيمة الصدق تسمية الحسناء (غانية) يقصدون إنها غنيت بجمالها عن الزينة. وقد يتأدى التعبير الصادق فى صورة خيالية أو صورة تعبيرية تتحقق فى بعض وجوه البديع، فهذا أو غيره يقتضيه الصدق ويخلقه، والعكس غير صحيح. فالصدق لايشترط فيه تنميق وزخرفة.

إن حديث الراغب عن الصدق باعتباره قيمة جمالية ينبه إلى مايغيب عن أساتذة يظنون أن البلاغة تتحقق بقوانين لغوية أسلوبية ويسكتون عن تسجيلها قيم أمتنا فى الحق والخير والجمال، وننبههم إلى ما غفلوا عنه بقول شارل[١] لالو: «إن قوانين الجمال ليست خاصة بالمواضيع المفكر فيها، ولا بالشخص الذى يفكر فيها، بل هى عبارة عن بعض علاقات بين الجانبين، هى عبارة عن صور للتفاعلات العديدة المتبادلة بينهما».

أما الوجه الثانى الذى يعنيه الراغب فهو إشارة إلى أن الحكم البلاغى لايصدر إلا عن تقدير العلاقة بين الأديب وجمهوره والموضوع. فالبلاغة توصيل، والتوصيل الجيد يكـــون بالإقناع والتأثير معا من خلال هـــذه

الأطراف الثلاثة. والإقناع الجيد لايكون إلا بما هو نافع وخير. هل ترى فرقا بين رسالة الإعلام ورسالة البلاغة؟!

إن استشهاد الراغب بقوله تعالى (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) يؤدى معنى أن البلاغة كالاعلام توصيل جيد مسؤول نافع وخير. فقد جاءت الآية ٦٣ من سورة النساءفى شأن المنافقين الذين زعموا أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، ويريدون أن يتحاكموا إلى الشيطان، وقد أمروا أن يكفروا به، وهم يصدون عن الاحتكام إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، وقد أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعظهم وأن يقول لهم فى أنفسهم قول هاديا. فالقول البليغ فى هذه الآية هو القول النافع الخير الذى يهدى للتى هى أقوم.

فالبلاغة متصلة بالأدب المسؤول ولاتتصل بالشعراء المعبرين عن غرائزهم وشهواتهم، لأن السياقات المستعملة فيها مشتقات مادة ب ل غ -كما رأيت- متصلة بتمام النضج الجسمى والعقلى والنفسى ومتصلة أيضا بالهداية والتكليف بنشرها بين الناس، فالبلاغة قرينة الحكمة والحكم.

بعد أن أوقفناك على تعريف البلاغة المعنى بمضمونها ورسالتها. غير المقتصر على شكلها، نقدم لك البلاغة كما فهمها أصحابها فى القرون الثلاثة الأولى الهجرية، ونستفيد بدراسة لنا لما تنشر عن كتاب البيان والتبيين للجاحظ.

والمتفق عليه أن الجاحظ أول فى تدوين البلاغة العربية وأن كتاب البيان والتبيين له أهم مصدر يغطى نشأة البلاغة العربية. ودوره فـــــيه

مزدوج فقد كان راوية وكان دارسا. ننقل لك من دراستنا الجامعية التى لما تنشر منذ ١٩٧٢ ثم نعقب عليها.

تعريفات البلاغة فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ

يختلف مفهوم كلمة (بلاغة) عند أبى عثمان فى كتابه البيان والتبيين عما نجده عند علماء البلاغة المتأخرين، فهى عنده أقرب إلى معناها اللغوى الذى حدده أبو هلال العسكرى بقوله فى كتابه الصناعتين: «البلاغة لغة مشتقة من قولهم: بلغت الغاية، إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيرى، ومبلغ الشىء: منتهاه. فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه»(٢)

ولأن الجاحظ أول فى تدوين البيان العربى -كما رأينا- ولأن من دأبه تسجيل المناقشات التى تثار فى عصره فى كتبه، ولأن اصطلاحات علوم البلاغة كانت مختلطة غير مستقرة فى القرن الثانى، فقد رأيت من الواجب على استخلاص مفهوم الكلمة من كتاب البيان والتبيين مع اضطراب دلالتها وذلك بجمع التعريفات التى ساقها أبو عثمان، وترتيبها واحصاء استعماله للفظ -ما أمكننى ذلك- فى تقديم النصوص أو التعليق عليها، وأعتقد أن النتائج التى خرجْتُ بها من هذه الدراسة مما لايستهان به.

أولا : من النصوص التى تمثل استعمال العالمين بالعربية للفظ أورد أبو عثمان الأخبار الآتية:-

١ - «قال ابن الأعرابى: قال معاوية بن أبى سفيان لصحار بن عياش العبدى: ماهذه البلاغة التى فيكم؟ قال: شىء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا...، وقال معاوية: ماتعدون البلاغة فيكم؟ قال صحار:... ألا تبطىء، ولا تخطىء»[٢].

٢ - «قالوا: وذكر محمد بن على بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال: إنى لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله»[٤].

٣ - «قال ابن الأعرابى: قال المفضل بن محمد الضبى، قلت لأعرابى منا: ما البلاغة؟ قال لى: الايجاز فى غير عجز، والإطناب فى غير خطل، قال ابن الأعرابى: فقلت للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد»[٥].

٤ - ...وهذا تأويل قول الأصمعى: «البليغ من طبق المفصل، وأغناك عن المفسر»[٦].

ثانيا : النصوص التى تمثل تعريفات الكتاب الأدباء واستعمالهم للفظ:

١ - تعريف ابن المقفع الذى رواه أبو يعقوب اسحاق بن حسان ابن قوهى الخريمى[٧]:

«البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها مايكون فى السكوت، ومنها مايكون فى الاستماع، ومنها مايكون فى الإشارة، ومنها مايكون فى الاحتجاج. ومنها مايكون جوابا، ومنها مايكون ابتداء، ومنها مايكون شعرا، ومنها مايكون سجعا وخطبا، ومنها مايكون رسائل. فعامة مايكون فى هذه الأبواب الوحى فيها والإشارة الى المعنى، والايجاز هو البلاغة».

٢ - تعريف العتابى[٨]

«حدثنى صديق لى قال: قلت للعتابى: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولاحبسة ولا استعانة فهو بليغ، فان أردت اللسان الذى يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب فإظهار ماغمض من الحق، وتصوير الباطل فى صورة الحق. قال: فقلت له: قد عرفت الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أو ماتراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه: ياهناه وياهذا، وياهيه، واسمع منى، واستمع إلى... فهذا كله وما أشبهه عى وفساد.

٣ - رأى سهل بن هارون:

وهو ليس تعريفا شاملا، ولكنه رد على بعض أهل الهند وقد اعتبر فيه شكل الخطيب من آلات البلاغة، وله قول آخر صرح فيه بأن الوصف بالبلاغة لايقتصر على الخطيب، قال: «اللسان البليغ، والشعر الجيد لايكادان يجتمعان، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم»[٩].

٤ – رأى شبيب وهو يعد من الخطباء الأدباء:

«وحدثنى صالح بن خاقان قال: قال شبيب بن شبيه: الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه. وحظ جودة القافية وإن كانت كلمة واحدة، أرفع من حظ سائر البيت، ثم قال شبيب: «فان ابتليت بمقام لابد لك فيه من الاطالة فقدم إحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل قبل التقدم فى إحكام البلوغ فى شرف التجويد، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئا، فإن قليلا كافيا خير من كثير شاف»(١٠).

ثالثا : مفهوم البلاغة عند المعتزلة:

١ – عند عمرو بن عبيد

وهو وان كانت المعتزلة تعده أحد رجالهم إلا أنه من الممكن إضافتة إلى جماعة الزهاد والوعاظ من السلف.:

قال عبد الكريم بن روح الغفارى، حدثنى عمر الشمرى، قال: قيل لعمرو بن عبيد: ماالبلاغة؟ قال: مابلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، ومابصرك مواقع رشدك وعواقب غيك.

قال السائل: ليس هذا أريد. قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول.

قال: ليس هذا أريد. قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إنا معاشر الأنبياء بكاء» أى قليلو الكلام... وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل عن عقله.

قال: قال السائل: ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الكلام مالايخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت.

قال السائل: ليس هذا أريد. قال عمرو: فكأنك إنما تريد تخير اللفظ وحسن الإفهام.

قال: نعم. قال: «إنك إن أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة فى الآذان، المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم، ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت على الله جزيل الثواب»(١١).

٢- عند بشر بن المعتمر

جاء فى صحيفته: «...فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معانى الخاصة. وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لاتلطف عن الدهماء ولاتجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.(١٢).

٣- قال الجاحظ: وقال بعضهم؟. وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه(١١٢).

«لايكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلايكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه الى قلبك».

٤- وقيل لرجل من الحكماء:

«ما جماع البلاغة؟ قال: معرفة السليم من المعتل، وفصل مابين المضمن والمطلق، وفرق ما بين المشترك والمفرد، وما يحتمل التأويل من المنصوص المقيد»(١١٤).

٥- ولأبى عثمان مجموعة من الأقوال صدرت عنه فى البلاغة، منها:

أ- «أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا»(١١٥).

ب- «... ولأن كبار المتكلمين، ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء.(١١٦).

ج- «... والعتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه، أنه محكوم له بالبلاغة

كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا معناه... وإنما عنى العتابى إفهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء».(١٧).

قال:

د- «... وهم، وان كانوا يحبون البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة، فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر، والتكلف والإسهاب والإكثار، لما فى ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى، والمنافسة فى الغلو، وكانوا يكرهون الفضول فى البلاغة لأن ذلك يدعو إلى السلاطة، والسلاطة تدعو الى البذاء، وكل مراء فى الأرض فإنما هو من نتاج الفضول».(١٨).

إن دراسة هذه النصوص تبين مبلغ ماحظى به اللفظ من اهتمام البيئات المختلفة: مجالس الخلفاء، وحلقات دراسة العالمين بالعربية، والكتاب، والحكماء والمعتزلة. كذلك تكشف عن استمرار هذا الاهتمام فترة طويلة من الزمن، فقد بدأت مبكرة فى عهد معاوية بن أبى سفيان كما رأينا، واستمرت إلى وقت تصنيف أبى عثمان كتابه، ثم نضجت من بعده. ومادام الأمر كذلك فمن الطبيعى أن يتطور مفهوم الكلمة على أيدى هذه البيئات العلمية.

وأبو عثمان يعطينا نماذج من هذه الدراسة فى مدى قرنين من الزمان. والسمة الغالبة عليها أنها ليست تعريفات اصطلاحية جامعة مانعة للبلاغة، إن هى إلا إشارات الى الأبحاث التى كانت تتدارس تحت هذا العنوان، وهى ليست بعيدة فى مدلولها عن مفهوم البيان. وكلام بشر بن المعتمر الذى أوردناه يستعمل اللفظين: بيان، وبلاغة كمترادفين، وهو الاستعمال اللغوى غير الاصطلاحى للفظ، يقول صاحب القاموس المحيط «البليغ: الفصيح، يبلغ بعبارته كنه ضميره».(١٩).

أما نصوص المجموعة الأولى فتبين أن البلاغة تعنى الايجاز المبين، أو الإفاضة التى تدعو إليها الضرورة، وسرعة البديهة مع السلامة من الخطأ. لكن إلى أى الآثار تشير هذه المعانى؟ هل تنسحب على كل الأنواع الأدبية؟ الراجح عندى أن المعنى بها كان الكلام المنطوق من خطابة أو حكم دون غيره. ونفس هذه الأبحاث كانت تثار عند دراستهم للبيان.

وواضح أن الكتاب هم الذين وسعوا من مدلول اللفظ، ورائدهم فى ذلك ابن المقفع، فقد أضاف إلى ماسبق أن البلاغة صفة لاتقتصر على القول المنطوق بل تتعداه الى كل الأنواع الأدبية، ففى التناظر بلاغة، وفى الأقوال المأثورة وفى الرسائل بلاغة، وفى الشعر بلاغة. وزاد على هذا أن البلاغة سلوك كما هى تعبير «فمنها مايكون فى الصمت..النص».

ولاجديد فيما يقرره العتابى من أن البليغ هو من سلم من التكرار، ومن عيوب النطق، ولوازم القول ولاخلاف عليه، ولكنه حين يعتبر أن

من مكنه جمال بيانه من تصوير الباطل فى صورة الحق أعلى مرتبة ممن وضح ماغمض من الحق فهذه دعوة صريحة إلى الجدل أى المراء كما كان يسميها أصحاب الحديث، وسنجد مايخالف دعوى السفسطة هذه بل النهى عنها صراحة من بيئة المعتزلة فقد أشار عمرو بن عبيد إلى ذلك، وقد رأينا أبا عثمان يقف من هذه المسألة موقفا رافضا مايخالف قيمنا فى حديثه عن عمرو بن العاص، وغيلان بن خرشه الضبى فى حديثه عن نهر أم عبد الله.(٢٠).

ويوافق سهل بن هارون ابن المقفع فى أن الوصف بالبلاغة لايقتصر على الخطباء، بل يتعداه الى الشعراء، وإن ندر من يجمع بين الشعر والخطابة، وينبغ فيهما معا. وليس من شروط الوصف بالبلاغة فى نظره أن يكون الخطيب جميل السمت فاخر الثياب خلافا لما اشترط أهل الهند.

وكان شبيب بن شيبة أديبا خطيبا مقربا من الخلفاء(٢١)، متصلا بالكتاب(٢٢). لذلك عده مؤرخو الآداب من الخطباء البلديين. وكان فيما يفهم من أخباره يقرأ فى كتب آداب(٢٢)الملوك. وهو يشير فى كلامه الى ماكان يتدارس فى عصره تحت لفظ (بلاغة) من أبحاث فى بيئة الكتاب الأدباء من جمال الابتداء (الاستهلال)، وجمال القطع (الخاتمة) فى الخطابة والشعر. وهذا مالم نجده فيما بين أيدينا من نصوص عند أحد قبل شبيب: أما حديثه عن الإيجاز والإطناب والسلامة من الخطأ فقد وجدنا شبيها به.

وجدير بنا ألا نطالب أبا عثمان بالمعنى الاصطلاحى لما يعرض لـه من قضايا، فالدراسات التى عرض لها كانت ماتزال فى دور النشوء. كذلك لايجب أن نطالبه بما ورد فى كتب شيوخه أو معاصريه كأبى عبيدة والفراء اللذين عرضا لهذه الفنون فى كتابيهما مجاز القرآن لأبى عبيدة ومعانى القرآن للفراء فهو لم يسلم بكل ماجاء عنهما. وقد أشار الى أهمية دور الجاحظ فى كتابه الأستاذان محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام فى بحثهما عن تطور اصطلاحات البلاغة إلى القرن الرابع الهجرى فقالا:(٢٤) «إن الاصطلاحات البلاغية منذ نشأتها الأولى كانت مختلطة غير مستقرة أو محددة، فكان (المجاز) مثلا فى أوائل القرن الثالث يعنى التوسع فى الاستعمال، أو الترخص فى التعبير بصفة عامة، فيجمع بذلك كل مايمكن أن ينطوى تحت هذا المعنى فى اللغة والنحو والبلاغة.

وأخذت الاصطلاحات البلاغية الأخرى تظهر وتسجل فى بحوث علماء القرآن والبيان، وكان أولها شيوعا عندهم الاستعارة والتشبيه، والايجاز، والتكرار والسجع، والتجنيس، والكناية والتعريض، والمبالغة، وقد تعرض أبو عبيدة والفراء لبعض هذه الفنون فى أسلوب القرآن فى كتابيهما (مجاز القرآن) و(معانى القرآن)، كما تعرض الجاحظ لكثير منها فى البيان والتبيين والحيوان، عندما تعرض لنصوص من القرآن وانشعر وكلام العرب وخطبهم. وبمراجعة ماكتب الجاحظ نلاحظ أنه سجل من الاصطلاحات السابقة المجاز عامة، والاستعارة والتشبيه والايجاز والسجع والتلاؤم، ويسميه القران، ثم ضده وهو التنافر.

والمجاز عنده (استعمال اللفظ فى غير حقيقته توسعا من أهل اللغة). والاستعارة: تسمية الشىء باسم غيره اذا قام مقامه، والايجاز عنده الاختصار بنوعيه: الحذف والقِصَر، فيسميه الايجاز والقِصَره والسجع عنده لون من ألوان التعبير الجميل...»[٢٥].

واذا كان الأستاذان قد سبقا إلى دراسة تطور الاستعمال الاصطلاحى لفروع علم البلاغة، ودور الجاحظ فى هذا التطور فيجب أن نقصر عنايتنا هنا على دراسة كيف تم هذا التطور من خلال كتاب البيان والتبيين للجاحظ.

من الواضح لمن يستعرض التعريفات السابقة أن الكتاب أضافوا جديدا إلى مفهوم كلمة بلاغة معتمدين على الآثار الأجنبية، ولا أظننى بحاجة هنا إلى حشد مزيد من الأدلة والبراهين، فهذه قضية أصبحت فى حكم الأمور المقررة، فابن المقفع الكاتب أحـــد أعلام حركة الترجمة، أما العتابى وسهل بن هارون فلايخفى إطلاعهما على الآثـار الأجنبية لاتصـال العتابى بالبرامكة، وقيام سهل بن هارون على بيت الحكمة وماتبع ذلك من مخالطتهما للتراجمة. وقد وجدنا الجاحظ حين أراد أن يتعرف على أبحاث الأمم الأخرى فى البلاغة لم يجد سوى الكـــتاب يلجأ إليهم، قـال: [٢٦] «خبرنى أبو الزبير كاتب محمد بن حسان، وحدثنى محمد ابن أبان، ولا أدرى كاتب من كان قال: قيل للفارس ما البلاغة؟ قال.. وقيل لليونانى ما البلاغة؟ قال...، وقيل للرومى ماالبلاغة؟ قال...، وقيل للهندى ماالبلاغة؟ قال....» وسبقت الاشارة الى اعتباره الكتاب أصحاب أمثل طريقة فى البلاغة[٢٧]، وان عاد فجعل المتكلمين فوقهم رتبة.

أما دراسة معالجة المعتزلة موضوع البلاغة فتبين أن لاخلاف بينهم وبين تعريف العالمين بالعربية، لكنهم يضيفون أمورا:

أولها: العلاقة الوجدانية بين المتكلم والمستمع:

يؤكد هذه العلاقة القول المنسوب لعمرو بن عبيد «...وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين»، وفى القول الذى لم ينص على قائله: «...فلايكون لفظه إلى سمعك أسرع من معناه إلى قلبك»، وفى قول الحسن البصرى[٢٨] حين تكلم رجل عنده «بمواعظ جمة، ومعان تدعو إلى الرقة، فلم ير الحسن رق، فقال الحسن: إما أن يكون بنا شر أو بك. يذهب إلى أن المستمع يرق على قدر رقة القائل». ويؤكد هذه العلاقة أيضا ماقرره أبو عثمان من أنهم «يمدحون الحذق والرفق، والتخلص إلى حبات القلوب، والى إصابة عيون المعانى وكأنهم يشترطون فى الأديب أن يبلغ وجدان المستمع كما يبلغ عقله. وأساس هذه العلاقة عندهم اعتقاد المتكلم بما يقول، ورغبته الصادقة فى النصح والإفادة، ولذلك تنافى مع ذوقهم السلاطة والهذر، والتكلف والإسهاب لما فيهما من المباهاة، واتباع الهوى، وهذا رفض صريح لما نادى به العتابى من أسلوب السفسطة.

وهذه الدعوة وإن كانت ظاهرة واضحة عند المعتزلة فلا نعدم إشارات إليها عند السلف فقد أثر عن عامر بن عبد قيس قوله[٢٩]: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان».

ويحرص أبو عثمان على توكيد هذه الدعوة فى غير موضع من كتابه، يقول فى صدر الجزء الأول من كتابه(٢٠): وأحسن الكلام ماكان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه فى ظاهر لفظه، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله. فاذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة».

وهم يصدرون فى دعوتهم هذه عن فهم عميق للبيان مستمد من القرآن الكريم فليس عطف الهدى على البيان فى قوله تعالى من سورة آل عمران (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) إلا توكيدا لهذا المعنى. والجاحظ حين رفض المراء والجدل ولم يضف إلى قوائم الخطباء التى أوردها فى كتابه -أصحاب الجدل، كان - فيما أرجح -يصدر عن مسئوليته فى هذا الكتاب، كما يصدر عن اقتناع بمذهب الوسط الذى ينتهى إليه المتناظر عادة حين يقتنع ببعض آراء خصمه. فالواضح هنا أنه اقتنع ببعض آراء أصحاب الحديث الذين كانوا يرفضون الجدل. لذلك عاب غيلان بن خرشة فى مدحه وذمه لنهر أم عامر.

ثانيها : تقسيم الكلام الى طبقات على أقدار الناس:

جـــاء فى صحيفة بشر بن المعتمر قوله: «فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغـــة قلمك... إلى أن تفهم العامـــة معانى الخاصـــــة..

فأنت البليغ التام» والمتتبع لحديث المعتزلة عن الطبقات يجد أن هذه المسألـــة تنزل من تفكيرهم منزلة الفلسفة، وأوضح من قول بشر هذا قول أبى عثمان[٢١]: «وكما لاينبغى أن يكون اللفظ عاميا، وساقطا سوقيا، فكذلك لاينبغى أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس، كما يفهم السوقى رطانة السوقى، وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات».

وحديثه عن الطبقات لا يحمل طابع العصبية للعرب ويدل على أن الطبقات فى نظره مقسمة تقسيما بيانيا، ومن ملامح تصوره لهذا التقسيم حديثه عن العوام: «واذا سمعتمونى أذكر العوام[٢٢]... النص» وهو فيما يختص بمقارنته بين العرب وغيرهم من الأمم. وقد وجدنا بشر بن المعتمر يتكلم عن ألفاظ للخاصة ومعان لهم، وكذلك ألفاظ للعامة ومعان لهم. والطبقة الدنيا عندهم التى لاتصل إلى مرتبة العامة هى الطبقة غير الموصوفة بالبيان، وهى فى نظرهم طبقة أصحاب الحرف[٢٣].

ولايعنى هذا أن البيان والبلاغة عندهم مقصوران على العرب الأقحاح، فقد رأينا حديثه عن الكتاب، -وفيهم الكثير من الموالى- ينم عن تقدير لهم واحترام. كذلك وقف موقفا متقدما بالنسبة إلى عصره حين أعلن إعجابه، بأشعار المولدين وان لم يرتفعوا فى نظره إلى مرتبة العرب الأقحاح أصحاب اللغة فقال: «والقضية التى لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائـــر العرب

أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والناتية، وليس ذلك بواجب فى كل ماقالوه. وقد رأيت ناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها. ولم أر ذلك قط إلا فى راوية للشعر غير بصير بجوهر مايروى. ولو كان له بصر لعرف الجيد ممن كان، وفى أى زمان كان»(٢٤).

ثالثها : أن البلاغة ليست فى اللفظ المبتذل ولا فى الغريب المهجور :

كما أنها بالاستعمال اللغوى الذى يسير على «مجارى كلام العرب الفصحاء» أو المجاز الذى هو «التوسع فى الاستعمال، أو الترخص فى التعبير بصفة عامة». وقد وافق المعتزلة الكتاب فى أن الوصف بالبلاغة لايقتصر على الخطابة، بل يتعداها إلى كل الأنواع الأدبية، يؤكد هذا:

١ - قول بشر: «فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك».

٢ - وقول الجاحظ: «أما أنا فلم أر أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب».

٣ - وقوله أيضا(٢٥): «ونحن -أبقاك الله- إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج ومالايزدوج».

رابعها : مايجب لكل مقام من المقال :

أهم الموضوعات التى نوقشت تحت هذا العنوان قضية الايجاز والاطناب، وقد وجدنا المفضل بن محمد الضبى يعتبر الايجاز هو البلاغة. والموقف هنا يختلف عند المعتزلة فليس الايجاز خيرا كله، وقد ظهرت طائفة من أصحاب البيان البلغاء لايكادون يسكتون: منهم

إياس بن معاوية المزنى قاضى البصرة. والنقاش والجدل يقتضيان -فى كثير من المواقف- الخطيب إلى أن يطيل. لذلك اتخذ المعتزلة مذهب الوسط بين الايجاز الذى يدعو إليه الذوق العربى البدوى، والاطناب الذى تدعو إليه حياتهم المتمدينة. لذلك قال بشر بن المعتمر موجها كلامه الى متعلمى فن الخطابة: «فان ابتليت بمقام لابد لك فيه من الإطالة فقدم إحكام البلوغ فى شرف التجويد، فان قليلا كافيا خير من كثير شاف»، ويقول أيضا: «..وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، ومايجب لكل مقام من المقال». وأصرح من هذا ما أعلنه أبو عثمان من هذه القضية فى صدر الجزء السابع من الحيوان[٢٦]، قال: «...وقد بقيت أبواب توجب الإطالة وتحوج إلى الإطناب، وليس بإطالة مالم يجاوز مقدار الحاجة ووقف عند منتهى البغية. وإنما الألفاظ على أقدار المعانى، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وسخيفها لسخيفها. والمعانى المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعانى المشتركة، والجهات الملتبسة».

وقد صدر أبو عثمان فى موقفه من هذه القضية عن تكوينه المعتزلى وأنه أديب يدرس القرآن الكريم ويحتج لإعجازه، ففسر الإيجاز بقوله: «والايجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنما ينبغى له أن يحذف بقدر مالا يكون سببا لاستغلاقه، ولايردد وهو يكتفى فى الإفهام بشطره، فما فضل عن المقدار فهو الخطل».[٢٧].

أما مواضع الإسهاب فيلخصها بقوله: «ووجدنا الناس إذا خطبوا فى صلح بين العشائر أطالوا، واذا أنشدوا الشعر بين السماطين فى مديح الملوك أطالوا، وللاطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز».(٢٨)

وقد بين أنه إنما خلص إلى هذا الرأى مهتديا بأسلوب القرآن الكريم ومحتذيا آثار العلماء من السلف، قال: «ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف، واذا خاطب بنى إسرائيل، أو حكى عنهم، جعله مبسوطا، وزاد فى الكلام».(٢٩)

وهكذا نرى أن المعتزلة يستنبطون قواعد البلاغة من خلال دراستهم للنص القرآنى، والدفاع عن إعجازه، ثم يعممون القول على الأدب العربى بأنواعه، وعلى الخطابة بصفة خاصة.

خامسها : البلاغة هى إفهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء:

أثيرت تحت هذا العنوان مناقشات عديدة حول أساليب متباينة، وتحت اصطلاحات مختلفة أشهرها (المجاز) الذى كان يقصد فى الغالب معناه اللغوى أى طرقهم فى فهم الأساليب العربية، ولأبى عبيدة معمر بن المثنى كتاب (مجاز القرآن) تدور موضوعاته حول طريقة فهم النص القرآنى عن طريق دراسة مأثور القول من منظوم ومنثور.

ونفس هذه الدراسة تناولها الامام محمد بن إدريس الشافعى تحت عنوان (البيان) فى رسالته فى أصول الفقه[٤٠]، قال: «وانما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ماتعرف معانيها، وكان ماتعرف من معانيها اتساع لسانها وأن فطرته أن يخاطب بالشىء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر ويستغنى بأول هذا منه عن آخره، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ماخوطب به فيه. وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف فى سياقه أنه يراد به غير ظاهره... وتبتدىء الشىء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره. وتبتدىء الشىء من كلامها تبين آخر لفظها فيه عن أوله. وتكلم بالشىء تعرفه بالمعنى دون الايضاح باللفظ كما تعرف الإشارة. ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها، وتسمى الشىء الواحد بالأسماء الكثيرة. ويسمى بالاسم الواحد المعانى الكثيرة».

فالعام والخاص مبحثان من مباحث الأصوليين أثيرا لدارسة ماجاء من أساليب القرآن الكريم، والدارس لرسالة الامام الشافعى يجد أنه استشهد على مايقول بكلام العرب الفصحاء.

ونفس هذه الدراسة صدرت عن المعتزلة، وقد رأينا مثالا له فى موقف الجاحظ من أستاذه أبى عبيدة فى تأويله الآية الكريمة (وثمودا فما أبقى). وموقف المعتزلة من هذه القضية كما لخصه الأشعرى ينقسم الى قسمين:[٤١]

أولهما: ما اتفقوا عليه من بقاء الأخبار العامة على عمومها، والخاصة على خصوصها.

ثانيهما: ما اختلفوا فيه من مجيء الخبر ظاهره العموم، وليس فى عقل السامع مايخصصه.

وقد أشار الجاحظ الى هذا البحث فى تفسيره عبارة العتابى[٤٢]. ومن الأساليب التى عرضها أبو عثمان تحت هذا العنوان:

أ- ماذكره من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لم يسبقه اليه عربى[٤٣] ولاشاركه فيه أعجمى، ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد، كقوله: «ياخيل الله اركبى»، وقوله: «مات حتف أنفه»، وقوله: «لاتنتطح فيه عنزان».

ب- وماذكره من كلامه عليه السلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وهى أقوال بليغة للرسول عليه السلام صدر بها الجزء الثانى[٤٤]من كتابه البيان والتبيين، كقوله عليه السلام للأنصار: «أما والله ماعلمتكم إلا لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع» وقوله عليه السلام (المرء كثير بأخيه)...[٤٥]»

ج- ومنها ما أورده تحت عنوان «باب من اللغز فى الجواب[٤٦]»:

وقد أورد مجموعة من الأخبار الطريفة منها: «قالوا:

كان الحطيئة يرعى غنما له، وفى يده عصا. فمر به رجل فقال: ياراعى الغنم ماعندك؟ قال: عجراء من سلم. يعنى عصاه.

قال: إنى ضيف. فقال الحطيئة: للضيفان أعددتها. وهذا مايعرف فى علم البديع بأسلوب الحكيم وهو تلقى المخاطب بخير مايترقبه، إما بترك سؤاله والاجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصده.

د- ومنها أيضا مارواه تحت عنوان «ادارة اللفظ على المجاز» وقد كانت هذه القضية مثارا لخلاف كبير بين المعتزلة والسلف. والمجاز عند أبى عثمان هو استعمال اللفظ فى غير حقيقته توسعا من أهل اللغة وهو من أوضح الأبحاث وأكثرها نضجا فى كتابات أبى عثمان، وعليه خالف عبد الله بن عباس، والحسن البصرى، ثم بعض أهل الحديث والمتصوفة. ولم يصور الجاحظ الخلاف بينه وبين عبد الله بن عباس -حين تحرج من تفسير اللفظ على المجاز- كتعارض وجهتى النظر فى المسألة بين شخصين إنما بلوره إلى مذهب المفسرين من السلف يمثله ابن عباس والحسن البصرى ومن حذا حذوهما، فى مقابلة مذهب المعتزلة ممثلا فى آراء ابراهيم بن سيار النظام، وبشر بن المعتمر، والجاحظ. وأورد فى كتابه الحيوان نماذج من مسائل الخلاف، منها الأخبار الآتية:-

١- «وسمع الحسن رجلا يقول: طلع سهيل وبرد الليل. فكره ذلك وقال ان سهيلا لم يأت بحر ولاببرد قط. ولهذا الكلام مجاز ومذهب وقد كرهه الحسن كما ترى».

٢- وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر. وهذا كلام مجازه قائم وقد كرهه ابن أنس. كأنهم من خوفهم عليهم العود فى شىء من أمر الجاهلية، احتاطوا فى أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذى فيه أدنى متعلق.

٣- ورووا أن ابن عباس قال: لاتقولوا والذى خاتمه على فمى، فانما يختم الله عز وجل على فم الكافر. وكره قولهم (قوس قزح) وقال: قزح شيطان، وانما ذهبوا الى التعويج والتلوين، كأنه كره ماكانوا عليه من عادات الجاهلية وكان أحب أن يقال قوس الله، فيرفع من قدره، كما يقال: بيت الله، وزوار الله، وأرض الله، وسماء الله، وأسد الله.

٤- وكره ابن عمر رضى الله عنهما قول القائل: أسلمت فى كذا وكذا، وقال: ليس الاسلام إلا لله عز وجل. وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل، وقد كرهه ابن عمر، وهو أعلم بذلك».(٤٧)

واذا كان الجاحظ يروى الأخبار هنا مصورا أوجه الخلاف وملتمسا العذر للسلف فى اتخاذهم هذا الموقف حرصا على العقيدة، فقد رفض أن يستمر مقابل هذا الاتجاه فى عصره عند طائفة المفسرين والمتصوفة وهو التفريط وطبق دعوة أستاذه النظام بعدم الاعتماد على كثير من المفسرين حين قال(٤٨): «لاتسترسلوا إلى كثير من المفسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا فى كل مسألة، فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم،

وليكن عندكم عكرمة، والكلبى، والسدى، والضحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصم، فى سبيل واحدة. فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا فى قول الله عز وجل (وأن المساجد لله): ان الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التى نصلى فيها. بل إنما عنى الجباه وكل ما سجد الناس عليه: من يد ورجل وجبهة، وأنف وثفنة».

وهم يصدرون فى ذلك عن دافعين:

أولهما : التنزيه لله سبحانه وتعالى بانكارهم التشبيه وتفسيرهم اللفظ على المجاز. من ذلك ماحكاه عنهم الأشعرى: «من إنكارهم -مجمعين على ذلك- العين واليد وتأولوهما بأنه ذهب فى معنى العين إلى أنه أراد العلم. ومنهم من ذهب الى أن اليد النعمة»(٤٩)

والدافع الثانى: هو حرصهم على فهم اللغة بطرائقها التى جاءت عن العرب الفصحاء.

تعريف غير العرب البلاغة

احتفل الجاحظ بالبحث عن مفهوم البلاغة عند غير العرب، وقد ظفر بتعريفات لها أثرت عن الفرس، واليونان، والروم، ولكن ماحصل عليه من تعريف الهنود البلاغة كثير اذا ماقورن بغيره. وقد صرح بأن مصدره فى هذه التعريفات بينة الكتاب وسبقت الاشارة إلى مخالفة سهل بن هارون بعض أهل الهند حين اشترطوا وسامة الخطيب للحكم

عليه بالبلاغة.. وهذا معمر أبو الأشعث يسأل بهلة الهندى: ما البلاغة عند أهل الهند؟ فيدله على صحيفة مكتوبة.

واحتفاله هذا يجعلنى أقف لأتساءل: هل قصد من ورائه الرد على الشعوبية والتدليل على أن العرب لايقلون عن غيرهم من الأمم ذوات الحضارة شأنا فى معالجة هذا الموضوع الحيوى؟ أم أراد إضافة جديد الى مفهوم البلاغة عند العرب؟ وهل تنزل هذه الأمم عنده منزلة المعلم أو حتى منزلة الند؟ أم أن الأمر لايتعدى رغبتة فى حشد معلومات طريفة فى كتابه؟

إن دراسة تعريفات البلاغة هذه تبين أن معلومات الجاحظ عنها عند الفرس أو اليونان أو الروم قليلة وغامضة، فقد وردت فى عبارات موجزة لاتتعدى الواحدة منها سطرا، وجاءته شفاها عن أحد أبناء هذه الأمة أو تلك، وهى فى النهاية لاتضيف جديدا الى تعريف العرب البلاغة الذى عرضنا له بالدراسة فى بيئتى الكتاب والمعتزلة. فحين يتجه الفارسى إلى معرفة الفصل من الوصل، ويحرص اليونانى على ترتيب الأفكار واختيار الألفاظ المناسبة: «تصحيح الأقسام، واختيار الكلام». ويشير الرومى إلى مراعاة الكلام مقتضى الحال: «حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة». نجد عند العرب مايعبر عن هذه المعانى بأعيانها، من ذلك قول الأعرابى إنها «الإيجاز فى غير عجز، والإطناب فى غير خطل»، ومن أنها(٥٠): «معرفة السليم من المعتل، وفصل مابين المضمن والمطلق، وفصل مابين المشترك والمفرد، ومايحتمل التأويل من المنصوص المقيد»... ويبقى للعرب بعد هذا فضل الزيادة على هذه الأمم.

وقد وجدنا أن ما أورده من نصوص تتصل بتعريف البلاغة عند الهنود أكثر قيمة ووضوحا، بعضها رواه الجاحظ عن بعض أهل الهند، وبعضها الآخر أحضر له صديقه المعتزلى ترجمة لنص له مكتوب. والواضح أن تعريف الهنود البلاغة كان شائعا بين العرب متداولا قبل تصنيف أبى عثمان كتابه بسنين. فقد ناقشه سهل بن هارون وحصل على ترجمته معمر بن عباد السلمى (أبو الأشعث) وكلاهما توفى سنة ٢١٥هـ.

ان الشروط التى توجبها الصحيفة الهندية للحكم على الكلام بالبلاغة هى: فهم المتكلم الموضوع الذى يعالجه فهم المستوعب، واختياره الطريقة المناسبة للتعبير عنه، من الأمور مايحسن الإفصاح عنها، ومنها مايحسن فيها التلميح أو الصمت، وضرورة تخير الخطيب ألفاظه، ونقاء لهجته، ومراعاته اتفاق مستويات الكلام مع أقدار المستمعين، تعمد الايجاز فى القول، ويجب أن يساوى اللفظ معناه ويوافقه. أما عن المتحدث فيشترط فيه السن والجمال والوقار، وأن يكون فى اعتداده بنفسه وسطا بين الغرور وفقدان الثقة بالنفس.

وهو كما ترى أكثر التعريفات التى رواها عن غير العرب شمولا، ومن دراسته نستخلص النتائج الآتية: -

١- من الطبيعى أن يتأثر العرب المعنيون باستنباط صفات البلاغة وقواعدها بما كان يتردد حولهم من أصداء البلاغة عند الأمم المخالطة لهم كالفرس والروم والهند ومن إليهم.

٢ - أدخل الجديد فى هذا المفهوم طائفتان: الكتاب كابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما، والمعتزلة كالجاحظ وبشر بن المعتمر، وأبى الأشعث معمر بن عباد السلمى، هذا إلى جانب إسهام بعض أهل الهند فى نشر تراثهم والترويج له.

٣ - إن هذا التأثر لم يكن بمثابة التعليم والتلقين بل تم عن طريق المناقشات ورفض مالا يتفق مع الذوق العربى، فهذا سهل يخالف الهنود، وهذا إبراهيم بن سيار النظام يضطر أبا شمر عند أيوب بن جعفر إلى أن يحرك يديه على خلاف مايذهب إليه الهنود من أن الخطيب يجب أن يكون رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ. وهذا أبو عثمان يقرر عن طريق الأخبار أن المثل الأعلى للذوق هو الذوق العربى فى زى الشاعر(٥١)، وفى الأسلوب(٥٢). كذلك يعرض ما اختلف فيه من قضية الإيجاز والإطناب على القرآن الكريم، والذوق العربى، فيقول: «وجملة القول فى الترداد، أنه ليس فيه حد ينتهى إليه، ولايؤتى على وصفه. وإنما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوام والخواص. وقد رأينا الله عز وجل ردد قصة موسى وهود، وهارون وشعيب، وابراهيم ولوط، وعاد وثمود. وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم غبى غافل، أو معاند مشغول الفكر ساهى القلب. وأما أحاديث القصص والرقة فانى لم أر أحدا يعيب ذلك، وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعانى عيا..»(٥٣)

٤- إن هذا التأثر جاء بعد أن اتخذت الدراسات فى الأبحاث البلاغية العربية صفة العمق والشمول.

٥- إن هذا التأثر لايمكن قياسه والحكم عليه حكما نهائيا نطمئن اليه، فبعضه جاء عن طريق المشافهة والاختلاط بين العرب وغيرهم من أبناء هذه الأمم، وبعضه جاء مترجما عن أثر مكتوب لذا لايمكن القطع بالزمن الذى بدأ فيه.

فاذا ماحاولنا الإجابة عما طرحناه من أسئلة فسنجد أن الجاحظ لاينكر أنه أنشأ كتابه البيان والتبيين ومن أهم ما أراد أن يحققه به من أهداف معارضة الشعوبية، والرد على مطاعنهم على خطباء العرب. وقد كرر هذا القول فى غير موضع من كتابه.

وجدت أن الجاحظ كان أمينا فى تصوير الدرس البلاغى عند مختلف البيئات العلمية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين، لهذا عد الدارسون المتخصصون كتابه أفضل الكتب التى صورت الدرس البلاغى فى نشأته. ورأيت للجاحظ والمعتزلة عناية خاصة بالخطابة وأدركت الرباط الوثيق بين البلاغة وفن الخطابة.

مفهوم الخطابة فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ: (كل فنون القول النثرية من خطبة ووصية ومنافرة ومناقلة ومناظرة ومناقضة) فهى ليست بعيدة عن اهتمام المؤلف المسرحى الذى ينطق شخصيات مسرحياته بالحوار المصور أفكارها ومشاعرها. ولما كان تصور الجاحظ

البلاغة أنها درس أدب حين يؤدى، فقد دعاه هذا التصور إلى الحديث فى كتابه عن صور القصور المختلفة فى الأداء البيانى، كاللثغة والتمتمة والفأفأة. ومقابلها أى صور المبالغة فى الأداء البيانى كالتشديق والتقعيب والتقعير. كما دعا هذا التصور الجاحظ إلى أن يقرن البلاغة بالإشارة، وأن يتعرض للوازم الخطيب القوليه، ولوازمه الحركية، وصدى لوازم الخطيب عند الجمهور.

جاء اهتمام الجاحظ بالخطابة واضحا بين شواهده البلاغية من الأخبار والأمثال والأقوال المأثورة وبعض الرسائل. أضف إلى هذا كله شواهد عديدة من الشعر. ويجمع اختياره شواهده الأدبية أنها كانت موجهة لبيان معنى شعرى أو موظفة للتدليل على صحة قاعدة بلاغية، أو مبرهنة على ترجيح وجهة نظر فى قضية من قضايا البلاغة.

فالبلاغة بهذا المفهوم وثيقة الصلة بالأدب المعاصر إنشاء ودراسة، وهى خالية من العيوب التى تضاف إلى درس البلاغة لدى المتأخرين. للتدليل على مانقول نذكر لك أولا: تأثير الجاحظ فى توفيق الحكيم، ثانيا: اتصال الدكتور طه حسين بتوفيق الحكيم وتدارسهما الأدب والبلاغة.

أولا : تأثير الجاحظ فى توفيق الحكيم:

نص رائد التأليف المسرحى النثرى فى العالم العربى الأستاذ توفيق الحكيم فى كتابه (فن الأدب) إنه كان يقرأ بعض كتب الجاحظ وهو فى

الفرقة الأولى من التعليم الابتدائى، وقال عنه: «إنه الأستاذ المباشر لأكثر رجال القلم فى الأدب العربى المعاصر..» كما كتب عن كتاب التربيع والتدوير للجاحظ دراسة بعنوان (فن جديد عند الجاحظ) قال فيها: «إذا صدق ظنى فالجاحظ من أسبق الكتاب إلى التصوير (الكاريكاتورى) .. إن فى كل (كاريكاتور) نوعا من الهجاء. وليس فى كل هجاء نوع من (الكاريكاتور).

كل همك فى الهجاء أن تزرى بخصمك، وأن تطعنه فى عزته وكرامته، ومواطن رفعته وقوته. أما فى (الكاريكاتور) فإن غرضك الأول هو أن تبحث عن الغلطة المحسوسة فى تكوينه الجسمانى، وأن تنقب عن السقطة الملحوظة فى تركيبه النفسى، وأن تفتش عن الخلة الممقوتة فى طبعه الخلقى، حتى إذا عثرت على شىء من ذلك، وأنت لاشك واجد فى أغلب الأحيان، بادرت إلى قلمك أو ريشتك فقمت تمعن فى تجسيم هذا العيب وتضخيمه وإبرازه على نحو يجعلك فى نظر الرائى أو لقارئ طاغيا، ولتصغ إلى الجاحظ حيث يقول...»

كما تجد إشارات صريحة وضمنية فى كتابه (فن الأدب) إنه استفاد فى كتابته المسرحية من البلاغة العربية.

ثانيا: تأثير الدكتور طه حسين فى توفيق الحكيم:

رأيت إن المآخذ التى سجلها الدكتور طه حسين على مسرحية (أهل الكهف) تتصل بسوء تطبيقات توفيق الحكيم قواعد البلاغية العربية.

فقد طلب الدكتور طه حسين منه أن يلغى طبعة ١٩٣٣ وأن يعيد طبع المسرحية مرة أخرى بعد أن يصلح بعض مافيها من أغلاط، وأبدى استعداده أن يشترك معه فى الإصلاح إن أراد، فقد أطال فى بعض المواضع وكان يجب أن يكتفى بالاشارة... وكل هذه الأغلاط ترد إلى سوء تطبيق أبواب البلاغة الإيجاز بنوعيه القصر والحذف، وباب الإطناب وأبواب الكناية والاشارة والرمز ومقابلها التصريح.

ونعتقد إن صحبة د.طه حسين وتوفيق الحكيم جاءت فى حينها ففى عام ١٩٣٣ أخرج توفيق الحكيم أول مؤلفاته (أهل الكهف) و (عودة الروح) وفى العام التالى ١٩٣٤ أخرج (شهر زاد) وقال إنها ثمرة تعاونه مع د.طه حسين. ونعتقد إن هذا التعاون بينهما قد أثمر فهما أعمق واستثمارا مجديا لوجوه البلاغة العربية، وتطبيقا أكثر ذكاء لطاقاتها الإبداعية.

نختار لك فقرة من الباب الأول وعنوانه (الأدب ويداه) من كتاب (فن الأدب) لتوفيق الحكيم يبين فيها ثمار مدارسة البلاغة العربية بين دارس الأدب والأديب المنشئ، قال توفيق الحكيم: «..النقد للأديب الجديد موجه، وللأديب القديم مفسر... ينبغى للنقد الفنى أن يوجه الجديد إلى شخصيته التى لم تظهر، وأن يفسر للقديم شخصيته التى ظـــهرت...

إن الآثار الأدبية بغير نقد بنائى يربط بين أجزائها واتجاهاتها، لايمكن أن تصنع أدبا بالمعنى المعروف فى الآداب الكبرى..شأن النقد فى الأدب كشأن الفقه فى القضاء. فليس الحكم العادل وحده هو الذى يصنع علم القانون، كما يعرف فى الأمم الكبرى.. فما أكثر الأحكام العادلة التى تصدرها مجالس التحكيم عند البدو أو عند كثير من القبائل الفطرية! فهل نستطيع أن نسمى هذه الأحكام قضاء بالمعنى القانونى؟ لا. لماذا؟ لأنه ينقصها الفقه الذى يجمعها ويمحصها ويرتبها ويستخرج منها الاتجاهات والنظريات والمذاهب والمبادئ. فالفقهاء فى الشريعة الإسلامية والقوانين الرومانية والأوربية، قديما وحديثا، هم الذين يغوصون فى أعماق النصوص. وتفسيراتهم للأحكام قد شيدوا بها هذا البناء الضخم المتناسق المتماسك لهذه الشرائع والقوانين.

كذلك النقاد، أى فقهاء الأدب والفن، بانكبابهم على الآثار الأدبية والفنية يستخلصون منها التفسيرات والمقارنات والمذاهب والاتجاهات، قد أقاموا بجهودهم المتصلة صروح الآداب والفنون. فالأدب العربى القديم ماعاش حتى اليوم أدبا خصبا، ومابقى لنا تراثا غنيا إلا بفضل رواته ونقاده وباحثيه الذين تنقهوا فى درسه، ووازنوا بين شعرائه وأدبائه، وأظهروا لنا أسرار أساليبه، وآيات بلاغته، وكشفوا عن مؤثراته ومراميه، ومدارسه واتجاهاته فى مختلف العصور والأزمان.

فالأدب الفنى لابد له من نقد إنشائى..»(٥٤)

نرجئ معالجة مفهوم البيان إلى الفصل الثانى من هذا الباب فهو متصل بعطاء الجاحظ البلاغى الذى يمثل به نشأة البلاغة العربية.

مفهوم النقد

يطلق النقد لغة على المعاملات المالية الشائعة بين الناس المبنية على أعراف معهودة من حيث العطاء والأخذ، بالبيع والشراء، أو التواهب عن تراض، فيقولون: «نقدها ينقدها نقدا، وانتقدها، وتنقدها. ونقده إياها نقدا: أعطاه، فانتقدها أى قبضها.»(٥٥)

أما المعاملة بالأجل لظروف استثنائية طارئة، فهى المقابل للنقد، فيقولون: النقد خلاف النسيئة.

وقد أطلقوا النقد على مايقوم به الصراف من إخراج الزائف من النقود أو ناقص الوزن وعزله عن الصحيح بسرعة نتجت من إدراك خواص الدرهم الصحيح من حيث الشكل واللون والحجم والوزن، فارتبطت دلالة النقد بالقيمة، كما ارتبطت بالمعيب. فنراهم يطلقون على الدرهم المعيب أنه درهم نقد. قال الفرزدق واصفا ناقته:

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة .. نفى الدراهيم تنقاد الصياريف

كما أطلقوا النقد على عملية أخرى متصلة بالقيمة، ولكنها ليست مادية خالصة كنقد الدرهم والدينار، ولكنها تعرف بالتفرس والاستنتاج. من هذا القبيل إطلاقهم النقد على عملية النقر بالإصبع على الثمار للتعرف على مقدار نضجها دون فتحها، فقالوا: «نقد الشىء ينقده إذا نقره بإصبعه كما تنقر الجوزة».

وأبعد من هذا إطلاقهم النقد على التعرف على الناس والحكم عليهم بالنظرة المختلسة فقالوا: «نقد الرجل الشىء بنظره ينقده نقدا، ونقـــد

إليه: اختلس النظر نحوه. ومازال فلان ينقد بصره إلى الشيء إذا لم يزل ينظر إليه. والإنسان ينقد الشيء بعينه وهو مخالسة النظر لئلا يفطن له.»

فالدلالة اللغوية للنقد ارتبطت بالقيمة مادية ومعنوية، والحكم، وتضمنت أن المنقود معيب. وهذا ماسجله صاحب اللسان من قول أبى الدرداء: «إذا نقدت الناس نقدوك، وإن تركتهم تركوك» قال: «أى إذا عبتهم قابلوك بمثله. لهذا ربطوا النقد بالشعر اصطلاحا ولم يجوزوا استعمال هذا المصطلح مع القرآن الكريم أو السنة المطهرة. ولهذا قصروا النقد على باب مآخذ العلماء على الشعراء ولم يطلق القدماء (النقد) على عموم درس الأدب.

أول من استعمل (النقد) مصطلحا لدرس الأدب محمد بن سلام الجمحى فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) ومعاصره الجاحظ، وهما بصريان متعاصران عاشا فى النصف الثانى من القرن الثانى والثلث الأول من القرن الثالث الهجرى. وقد أورده ابن سلام على سبيل التمثيل، قال: «للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ماتثقفه اليد، ومنها مايثقفه اللسان، ومن ذلك اللؤلؤ والياقوت لايعرف بصفة أو وزن دون المعاينة ممن يبصره، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لاتعرف جودتهما بلون ولامس ولاطراز ولاحس ولاصفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها وستوقها ومفرغها.»(٥٦)

فابن سلام تحدث عن أهل العلم بصنعة الشعر وثقافتهم، وأن شأنهم فى البصر بصنعتهم كشأن غيرهم من أهل العلم والصناعات ومنهم الناقد، وهو الصراف الذى يميز جيد النقود من رديئها. وقد عدد من النقود الرديئة: البهرج، والزائف، والستوق والمفرغ.

فابن سلام أورد مصطلح (النقد) على سبيل التمثيل وقد شاع من بعده وله الفضل فى إيجاد هذا المصطلح. وابن سلام سمى درس الأدب (العلم بصنعة الشعر) وهذا مصطلح كان شائعا فى عصره واستعمله الجاحظ كما سنرى. وابن سلام لم يقصر العلم بالشعر على المتخصصين كما يتوهم بعض الباحثين المحدثين، فمن أهل العلم بالشعر بعض جمهور الشاعر وبعض الشعراء.

أما الجاحظ فقد استعمل (النقد) مصطلحا لدرس الأدب صراحة، قال فى استهلال باب البيان فى كتابه البيان والتبيين: «قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى:[٥٧] وهو يعنى نفسه بهذه العبارة. فاستخدم (النقد) مصطلحا يعنى به أهل العلم بصنعة الشعر ويعنى نفسه وهو إمام البلاغيين العرب.

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن: من أهل العلم بصنعة الشعر وثقافته؟

الإجابة عن هذا السؤال مسألة خلاف العلماء فيها قديم متجدد بتجدد مفهوم الأدب[٥٨]. وقد عبر قديما عن هذه القضية الجاحظ، قال: «طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لايحسن إلا غريبة، فرجعت إلى

الأخفش فوجدته لايتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لاينقل إلا ماتصل بالأخبار وتعلق بالأنساب. فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات.»(٥٩)

فهؤلاء الذين ذكرهم الجاحظ من شيوخه تخصصوا فى رواية الأدب ودرسه، وصار كل واحد منهم علما فى فرع من فروع العربية. وقد شهد أن علمهم بصنعة الشعر لايرقى إلى مكانة علم طائفة الكتاب الأدباء بالشعر، فقد درسوا الشعر ليرتقوا بالعبارة النثرية.

الخلاصة إن مصطلح النقد عند ابن سلام الجمحى والجاحظ اتصل بالمآخذ، وهى فرع من فروع البحوث البلاغية يسجل فيه العلماء على الشعراء ما يعدونه من الأخطاء القليلة التى تسجل عليهم فى مقابلة الابداعات الكثيرة التى تسجل لهم، والتى سميت المعانى الشعرية، وسميت البديع. فالنقد مصطلح جعل فرعا لعلم صنعة الشعر. قال الأستاذ أمين الخولى فى مقاله فى دائرة المعارف الاسلامية المترجمة معرفا مادة (بلاغة): «...بمضى الزمن تميزت الدراسات واستقرت واتخذت كل مجموعة من قواعدها اسما خاصا. ورتبت العلوم مجموعات، فكانت علوم العربية أو العلوم الأدبية أولا تعد ثمانية هى: النحو، واللغة، والتصريف، والعروض، والقوافى، وأخبار العرب، وأنسابهم، وثامن هذه العلوم (علم صنعة الشعر) وهو اسم مجموعة الدراسات السابقة التى تعلم معرفة الجيد من القول وصناعته. وكذلك سميت الفنون البلاغية قديما صنعة الشعر، كما سميت أحيانا نقد الشعر أو نقد الكلام..

ومن هـنا نقدر كيف التقى النقد بالبلاغة واتحدا عندهم، فلم يفردوا النقد ببحث خاص، ولاسموا له علما.»

شـهادة المؤرخ الأستاذ أمين الخولى صريحة مؤيدة ماذهبنا إليه إن النقد مبحث خاص من مبحث عام هو البلاغة أو علم صنعة الشعر أو البيان، والخصوصية فى النقد تشير إلى دلالته اللغوية المقترنة بالمعيب أى المآخذ. والدليل على صحة ماذهب إليه أستاذنا أمين الخولى، ومانذهب إليه إن كتاب نقد الشعر لقدامه بن جعفر درس بلاغى: قول أبى الفـرج قدامـه بن جعفر (توفى سنة ٣٣٧هـ) مستهلا كتابه (نقد الشعر): «والعلم بالشعر ينقسم أقساما فقسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته، وقسم ينسب إلى علم معانيه.. وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه. وقد عنى الناس بوضع الكتب فى القسم الأول ومايليه إلى الرابع عناية تامة.. ولم أجد أحدا وضع فى نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا. وكان الكلام عندى فى هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة.»(٦٠)

فقدامـه بن جعفر الكاتب سمى البلاغة العلم بالشعر. وفى التعريف إيجاز حذف أصله العلم بصنعة الشعر. وكتابه فرع عن هذا الأصل، ومحتوى الكتاب بحوث بلاغية. معنى هذا إن النقد فرع من البلاغة العربية مختص بالمآخذ. ولكن لما كان درس الأدب يقوم على تصور متكامل فى الموهبة والاكتساب وأثر البيئة وأثر العرق والمآخذ والسرقات والابداعات بحيث يفضى درس بعض هذه الأبواب إلى بعضها الآخر، وهذا ما حدث فى نقد الشعر لقدامه بن جعفر، فقد صار درس المآخذ مفضيا إلى الحديث عن البلاغة العربية بأبوابها ووجوهها.

يتدخل عنصر الحـظ فى الآثار الأدبية ودراستها من حيث الشيوع والخمول، وهذه قضية أثارها الجاحظ قديما، ويثيرها مصطلح النقد الأدبى حديثا. فقد فتن الدارسون المحدثون للأدب الغربى بترجمة مصطلح .Literary Criticism إلى النقد الأدبى، وأرادوا وصل الشرق بدارسات الغرب فى كل مجال من مجالات المعرفة، ولم يفرقوا حين اختاروا (النقد) دلالته الخاصة فعمموا دلالة اللفظ على درس الأدب العربى.

وعندنـا إن من سموا درس الأدب القديم كله فى تراثنا نقدا فريقان، أحدهما: صاحب خطأ نلتمس له العذر حين تسهل بحسن نية فى اعتماد الخاص بجعله عاما، مخالفا فى ذلك اللغة. ومعترفا بسلطان الحظ على الآثار الأدبية. ونعد من هؤلاء الأستاذ طه أحمد ابراهيم والدكتور طه الحاجرى والأستاذ محمد خلف لله أحمد.

وثانيهما: صاحب خطيئة سمـح لنفسه أن يطعن فى تراث أمته، وأن يضيعه. ولم يجد غضاضة فى أن يكون غربى العين والقلب، عربى اللسان. وهؤلاء نعد منهم: د.محمد مندور ود.محمد زغلول سلام ود.جابر عصفور وأصحاب الحداثة.

وقـد اكتشف الأساتذة طه حسين ومحمد خلف الله أحمد وأمين الخولى أنهم بصدد مؤامرة خبيثة على تراثنا، فتصدوا لها، ونالهم من هذا الموقف الوطنى أذى كثير يكفينى فى التدليل على بعضه إن كتب أمين الخولى ومحمد خلف الله يعز عليك الحصول عليـها مـن أى ناشـر،

وأن تجدها فى أية مكتبة عامة. وأما الدكتور طه حسين فقد كانت شهرته درعا وقاه هذا الشر. النتيجة إن الدارسين المحدثين للأدب غير الأساتذة محمد خلف الله أحمد وأمين الخولى وطه حسين ادعوا أن البلاغة العربية شىء مختلف عن النقد الأدبى ورائدهم فى هذا الزعم الدكتور محمد مندور فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب)، قال فى الفصل السابع منه وعنوانه (تحول النقد إلى بلاغة: سر الصناعتين لأبى هلال العسكرى):

«..وأخيرا ظهر أبو هلال العسكرى الذى فرغ من تأليف (كتابه سر الصناعتين) فى شهر رمضان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة. وكان هذا الكتاب فيما نرى نقطة تحول النقد إلى بلاغة.

والذى لاشك فيه إن أباهلال كان ملما بمعظم ماقاله النقاد قبله.»[٦١] لم يفرق د.مندور بين مؤلف وكتاب وموضوع، فابن قتيبه ونظرية اللفظ والمعنى، وابن المعتز وكتابه البديع، وقدامه بن جعفر وكتابه نقد الشعر - كل هؤلاء نقاد وكل هذه الكتب كتب فى النقد الأدبى. ولغة الشعر ومصطلحات ابن المعتز وآراؤه فى البديع، والاستعارة والمطابقة من موضوعات النقد الأدبى؟!

إننا نرفض ماذهب إليه د.مندور لأنه كان فى عجلة من أمره حين ألف كتابه، ولأن تفريقه بين النقد والبلاغة لم يقم على أساس علمى، ونعتمد قول الأستاذ أمين الخولى فى التفريق بين لونين من درس الأدب، قال تعقيبا على ماكتبه المستشرق شاده فى تعريف البلاغة بدائرة المعارف

الإسلامية المترجمة: «ومؤرخ البلاغة يجد من مذاهب هذه الدراسة مايحسن تتبعه. وقد أدرك القدماء أنفسهم وجود بلاغتين، سموا أولاهما (البلاغة على طريقة العجم وأهل الفلسفة) وسموا الثانية (البلاغة على طريقة العرب والبلغاء). فهذا القول مناقض مناقضة كلية لدعوى د.مندور تلك التى لاتستند إلى حقيقة علمية وإنما تستند إلى توجيه أيديولوجى. كذلك التوجيه الذى صرح به المستشرق (كارلونالينو) أن يدرس آدابنا العربية كما يدرس الأوربيون آدابهم دون فرق، وإن كان الفرق يحتمه اختلاف مابين الشرق والغرب. فالهدف أن نظل تابعين للغرب وأن يؤكد هذه التبعية دارسو الأدب المستغربون والأدباء المبهورون بالغرب.

تكشف هـذا المخطط عبارة أشبه بالدعاية المدفوعة الأجر خرج بها د.محمد مندور عن موضوعه فلم يكتف بادعاء أن النقد مباين البلاغة، ولادليل عنده على مايقول، وإنما قرن البلاغة بالتخلف. واتخذ أبا هلال العسكرى وكتابه الصناعتين هدفا. والسبب واضح وهو أن أبا هلال قرن البلاغة بالإعجاز، والعلم بالعربية بالعلم بالقرآن فقال عن أبى هلال إن منهجه تقريرى عنى فيه بالبديع وأوصله إلى خمسة وثلاثين وجها. وكانت النتيجة أن ضاع من الأدب كل إحساس أو فكر أو فن صحيح. وغلبت عليه اللفظية والتكلف حتى أماتت الأدب؟!! وظلت تلك الكارثة مستمرة إلى أن ظهرت نهضتنا الحديثة، فاستطعنا بفضل تأثرنا بالأدب الغربى أن نرفع من وقرها. وإن كنا لانزال إلى اليوم ندرس البلاغة ولربما كنا فى ذلك الشعب الوحيد فى بلاد العالم المتحضر كله».(٦٢)

فالدكتور محمد مندور لم يعن بتحديد مصطلح درس الأدب بطريقة منهجية علمية وردد دعاوى أعدائنا عن تراثنا وخرج عن وقار العلماء وحيادهم فردد مايشبه الدعاية المدفوعة الأجر عن الحضارة الغربية. إنه التغريب لاشك.

ونفس السلوك قام بـه الدكتور محمد زغلول سلام فقد اتخذ لنفسه طريقا مقابلا لطريق الأستاذ أمين الخولى، ومخالفا لأستاذه المشرف على دراسته محمد خلف الله أحمد، فقد استباح لنفسه أن يسمى ماتعارف على تسميته أصحابه (بلاغة) ويسميه هو نقدا أدبيا. وجرؤ على أن يضع درس الإعجاز القرآنى بجانب درس النقائض تحت عنوان النقد الأدبى، مماجعل أستاذه ينبه إلى أن الدرس الأدبى القديم ينبغى أن يظل بمسمى البلاغة كما أراد له أصحابه، وأن يسمى درس بلاغة القرآن الكريم إعجازا تنزيها له عن النقد الذى يتضمن أن المنقود معيب.

قـال الأستاذ محمد خلف الله أحمد فى تقديمه للبحث الذى أشرف عليه للدكتور محمد زغلول سلام (أثر القرآن فى تطور النقد العربى): «ظاهرتان وثيقتا الصلة بالحياة الأدبية العربية وبرزتا من الدعوة الإسلامية: أولاهما هذا الكتاب العربى المبين الـذى تمت له الصدارة على كل ما أنتج العرب وينتجون من أدب وبيان، والذى هـو فى الوقت نفسه دستور الحياة وميزان السلوك والأصل الأول للتشريع. ومن الطبيعى أن تتجه أذهان المسلمين أول ماتتجه إلى العناية بهذا النص لشرح ألفاظه وتفسير آياته وتعرف أساليبه وتبيين مغازيه واستنباط الأحكام منه.

وكثير من هـذه النواحى يدخل فى صميم مانسميه وتسميه الآدب الأخرى (نقد الأدب) وإن كنا تأدبا مع القرآن الكريم نفضل له اسما آحر هو البلاغة والإعجاز.. ولعل هذا كان من الأسباب التى حدت بعلماء المسلمين ممن ألفوا فى صناعة الأدب إلى العدول عن لفظة (النقد) لما تتضمنه هذه اللفظة من ذكر المحاسن والمساوئ وإصدار الحكم على النص المنقود.

أمـا الظاهرة الثانية التى جدت مع الإسلام على الحياة الأدبية النقدية عند العرب فهى ظاهرة الإعجاز البلاغى وقيام الرسالة السماوية عليه، وهى ظاهرة لم تعرفها الآداب الأخرى. ومن الطبيعى كذلك أن يشغل علماء العربية بها، وأن يستعملوا أذهانهم وعبقرياتهم فى دراستها، وأن يستعينوا على هذه الدراسة بكل مايلزمها من أدوات، وبكل مايستحـثونه من مناهج وثقافات، وظاهر أنها فى صميمها دراسة نقدية من الطراز الأول. فهى تعتمد على بحث الأساليب، وتعمق أسرار البلاغة والموازنة بين ألوان الكلام الرفيع».(٦٢)

فالأستاذ محمد خلف اللـه أحمد يرى ترادفا بين النقد والبلاغة من حيث الدلالة، لم يجد فرقا بينهما من حيث العموم والخصوص سوى التأدب مع القرآن الكريم، وهذه جرأة على اللغة وتاريخ المصطلح اختلفَ فيها مع الأستاذ أمين الخولى الذى أصر أن تتفق اللغة مع المصطلح وأن يحترم الخصوص والعموم فى دلالة اللفظ. ولسنا مرغمين على تعديل تراثنا ليوافق ماعند الغربيين، فالاعجاز البلاغى للقرآن قضـية جوهريـة

وليست قضية شكلية، والبلاغة لاتقتصر على دراسة الأساليب بعيدا عن قيم الإيمان المنوط بها تحديد الصواب والحق والجمال والخير ومقابلها. وقد رأينا إن فى الغرب إلحادا وكيدا وسوء قصد تمثل فى لويس ماسينيون ومرجوليوث وغيرهما. ورأينا فى الغرب إيمانا وعلما محايدا تمثل فى أندريه لالند ويونج وغيرهما. ومسائل العقيدة والقيم من مسائل السيادة ولامجاملات أو تنازلات فيها.

اتخـذ الدكتور محمد زغلول سلام لنفسه موقفا يعد امتدادا لموقف الدكتور محمد مندور التغريبى المقابل لموقف الأستاذ أمين الخولى، كما خالف الأستاذ محمد خلف الله أحمد حين قال مستهلا كتابه بهذه العبارة: «لم يحظ النقد ودراساته فى مصر فى مطلع هذا القرن بكثير من عناية علماء العربية وجهودهم، وكان ميدانه تشغله البلاغة وعلومها، إذ كانت تدرس فى الأزهر ودار العلوم وغيرهما من سائر المدراس. وجاء الأستاذ الامام محمد عبده فخطا بالدراسات النقدية والبلاغية خطوة جديدة، إذ تناول كتابى عبد القاهر (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) بالدرس والشرح، وكان اتجاهه هذا تجديدا ورجوعا بالبلاغة إلى أصولها الأولى، وهى ماتزال طرية غضة قبل أن تبلغ مرحلة السكاكى وشراحه ومختصريه».(٦٤)

فهو قـد حاول فى مستهل عبارته أن يفرق بين النقد والبلاغة بمايفيد إن النقد هو الدراسة المستحدثة للنصوص الأدبية، وإن البلاغة هى الدراسة التراثية العتيقة للنصوص بأساليب القدماء فى الأزهر ودار العلوم.

وأضاف إن تجديد الشيخ الإمام محمد عبده حين تناول كتابى عبد القاهر الجرجانى الأسرار والدلائل بالشرح يعد رجوعا بالبلاغة إلى أصولها الأولى حين كانت غضة طرية. فهو لم يقل إن هذه القضية من صميم النقد، وإن هذا الوجه البلاغى من صميم البلاغة، وإن هذا الكتاب من صميم النقد. وذاك الكتاب من صميم البلاغة، وإنما أرجع الفرق بين النقد والبلاغة إلى منهج الدراسة. ولهذا وجدنا دراسات كثيرة تعتبر كتابى الدلائل والأسرار للامام عبد القاهر الجرجانى من صميم النقد الأدبى، ودراسات أخرى تعتبرهما من صميم البلاغة. فتفريق الدكتور محمد زغلول سلام بين النقد والبلاغة تفريق يمس الشكل ولاصلة له بالجوهر، لهذا أحدث بلبلة.

أمـا كتابه (أثر القرآن فى تطور النقد العربى) فقد رأيناه يعد من النقد الأدبى الدراسات اللغوية لتفسير القرآن مثل (مجاز القرآن) لأبى عبيدة و(معانى القرآن) للفراء. والدراسات البيانية لأسلوب القرآن مثل دراسة الجاحظ لبيان القرآن فى كتابه (البيان والتبيين) وكتابه المفقود (نظم القرآن) وكتاب (مشكل القرآن) لابن قتيبة. هذا كله وغيره من دراسات الشعر والبيان نقد أدبى مثل (نقائض جرير والفرزدق) و(نوادر أبى زيد) و(جمهرة أشعار العرب) كل هذا سماه نقدا أدبيا دون تمييز ووضعه جنبا إلى جنب مع كتب إعجاز القرآن.

ونبادر الدكتور محمد زغلول سلام بالسؤال: لماذا خالفت كل الدارسين القدماء، وعلى أى أساس تستند فى خلافك؟ إن القرآن الكريم معجـــز،

وإعجازه فى نظمه أى فى بلاغته، وقد عجز القدماء من بلغاء العرب عن الإتيان بمثله؛ سورة أو آية ومايزال التحدى قائما لمن يرى فى نفسه القدرة. فنحن أمام مسألة عقدية، وهى حقيقة علمية. هل هان عليك تراثك لترضى الغرب؟!

القضية عندنا تـرد إلى المكانة التى ينزل بها دارسو الأدب الثقافة والمناهج الوافدة على تراثنا فى مجال العلوم الانسانية. هل نحل مانأخذه عن الغرب محل المعلم ونرضى لأنفسنا أن نكون بلا ماض ولاتاريخ ولافكر ونعتبر الغرب معلما نأخذ عنه أخذ المبهورين فاقدى الثقة بأمتهم؟ ونكون مستغربين محققين الغاية من التغريب بأيدينا فى أمتنا؟ أو نأخذ من الغرب ومن الشرق مايصلح لنا وندع مالايصلح ونتعامل مع غيرنا على مستوى الأنداد. لنا فى الجاحظ أسوة حسنة وقد حدثناك عنها، ولنا فى الأديب الكبير توفيق الحكيم حديثا أسوة حسنه واقرأ له فن الأدب، والتعادلية، وقالبنا المسرحى، والمقدمة التى كتبها لمسرحية أوديب عن المأساه فستجد بين هذه الأعمال وغيرها فكرا مشتركا هو شخصية مصر. والأمر غير قاصر على دراساته الأدبية فكل أعماله الانشائية تشهد له إن مصر لم تغب عن سطر واحد مماكتب.

حدثناك عن فرض د.محمـد زغلول سلام مصطلح النقد الأدبى على الدراسة البلاغـية فـى كتابـه (أثـر القرآن فى تطور النـقد العربى) وقد سجل الدكتور مصطفى الصاوى الجوينى على الدكتور محمد زغلول سلام أنه يتصور ترادفا تاما بين دلالة النقد ودلالة البلاغة وجـاء هـذا

التسجيل من د.مصطفى الصاوى الجوينى فى كتابه (ألوان من التذوق) وكانت إشارته خاصة بكتاب د.محمد زغلول سلام (تاريخ النقد العربى حتى القرن الرابع الهجرى).

وحين صدر الجزء الثانى من كتاب د.محمد زغلول سلام (تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ط دار المعرف سنة ١٩٦٧)، قال د.مصطفى الصاوى الجوينى «لايوضح عرض الباحث الحالة العامة الفكرية. بحيث لانجد فارقا فى التاريخ للنقد والبلاغة، فهما عنده مترادفان على مدى الأعصر.»(٦٥)

وللدكتور مصطفى الصاوى الجوينى مقايسة بين النقد والبلاغة أوردها فى كتابه (البلاغة والنقد بين التاريخ والفن) قال: «تاريخيا كان النقد والبلاغة ممتزجين، على أنه إذا كانت البلاغة تتصل بالنص وحده، فالنقد مجاله أوسع. وبينما ارتبطت البلاغة بالإعجاز القرآنى وأسلوبه ارتبط النقد بالشعر والكتابة. ونجد صورة لاختلاط النقد والبلاغة فى كتب الجاحظ، وصورة لمباحث البلاغة فى كتاب الصناعتين، ثم صورة للنقد فى كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام. وبعد، فإن النقد يتصل بالنص وصاحبه وعصره والمؤثرات فيه أيا كانت مادية أو نفسية. بينما البلاغة تتصل بالنص مجردا ودون التفات لصاحبه أو لعصره.

- البلاغة أكثر جمودا من النقد، لأنه متحرك مع انتاج العصر بينما البلاغة قواعد تثبت حينا، وقل أن يضاف إليها جديد لارتباطها الثابت بالقرآن أولا.

- البلاغـة جزئية لارتباطها بالكلمة أو الجملة أو الفقرة بينما النقد كلى يتصل بالنص ككل.

- النقد طـرق وأساليب، بينما البلاغة اصطلاح.

- النقد ذاتـى، بينما البلاغة موضوعية.

- النقد فى أغلبه يلونـه الفن بينما البلاغة يغلب عليها المنطق.

- كانت غايـتا البلاغة والنقد أولا متحدتين، وهى تمييز الجيد من الردىء، ثم صارت غاية النقد هى إدراك الجيد من الردىء، بينما البلاغة هى اكتساب المهارة العملية فى الانتاج، كما نجد ذلك فى كتاب الصناعتين لأبى هلال وفى عيار الشعر لابن طباطبا العلوى. والأولى أن تصبح غاية البلاغة والنقد لوثوق اتصالهما بالنص القرآنى، بينما النقد غايته العملية هى اكتساب المهارة للانتاج الأدبى.

- البلاغـة هى البحث الأسلوبى فى النقد.

- النـقد تاريخيا عملى لأنه تطبيق، بينما البلاغة نظرية لأنها تشريع وتقنين ومظهر هذا كله أن مثل كتب الجاحظ والصناعتين لأبى هلال، والرسالة العذراء لابن المدبر احتفت كلها فى الأغلب بالدراسة النثرية إلى جانب ماقام حول النص القرآنى من دراسات بلاغية.

- القـرآن قامت حوله دراسات بلاغية وكذلك النثر، بينما الشعر قامت حوله دراسات نقدية».(٦٦)

يدلك نص الدكـتور مصطفى الصاوى الجوينى على مبلغ تحير الأساتذة حول مفهوم كل من النقد والبلاغة. وعندنا إن النقد مبحث مـن

مباحث البلاغة والعلاقة بينهما هى علاقة العموم فى البلاغة لغة ومصطلحا والخصوص فى النقد لغة ومصطلحا. وستقف على تفسير الدكتور طه حسين لهذه الظاهرة فى ختام هذا الفصل.

والرأى عندنـا إن الخلاف بين النقد والبلاغة ليس فى الحد وإنما فى الأيديولوجيا أى الولاء الذى يصدر عنه دارس الأدب وهذا ماعرضناه عليك فى درس د.محمد مندور ودرس د.محمد زغلول سلام فقد أفسد ولاؤهما للغرب درسهما لأدب أمتهما فألغيا تراثا بأكمله انبهارا بما عند الغرب. وقد امتد هذا الاتجاه عند أصحاب الحداثة وصار أكثر حدة وأدعى للمواجهة. وقد رأيت أننا دعونا أحد أصحاب الولاء للغرب الذين شوهوا تراث أمتهم إلى المناظرة العلنية فهدد باللجوء إلى القضاء؟! ونكل عن المناظرة.

ولكى لا نـدور فى حلقة مفرغة وجدنا أن الأنسب لدرسنا البحث عما اشتركت فيه هذه المصطلحات من حيث المضمون. وهذا الاتجاه الموضوعى فى الدرس أكده الأستاذ (روجر فاولر) فى (معجم مصطلحات النقد الأدبى الحديثة) والكتاب مجموعة بحوث متخصصة قام بها أساتذة جامعيون متخصصون فى النقد الأدبى وأشرف هو على إصدارها فى هذا المعجم. وقد رأينا أن نختار جزءا من مقال (آلان رودواى) أستاذ الأدب الانجليزى بجامعة نوتنجـهام، قـال معرفا النقد الأدبى: «(النقد) دلالتها الاشتقاقية أَصْدِرْ حُكما بعد فحص وتحليل. وإذا كان مصطلح النقد حاليا قد استبقى هذين المعنيين، فإن بعض المعانى قد اتحدت به، وصارت ذات خطر فى اتساع مدلوله.

وينبغى -بنـاء على هذه الحقيقة اللغوية- أن تعد المدارس الأدبية، وتاريخ الأدب أعمالا معاونة للنقد، ولاتحسب جزءا منه. والنظرية النقدية أيضا يجب أن تستبعد من مبحث النقد الأدبى منذ أن شرع أصحابها يتصورون أن النظرية النقدية أكثر التصاقا بالفكر النقدى من الأعمال النقدية القائمة على الحكم والتحليل. إن النظرية النقدية بحث فلسفى ينبغى أن يظل على هامش النقد ولايعد من صميم النقد الأدبى. والحكم فى هذا شبيه بمصطلح مابعد النقد، فربما كانت أفضل الأسماء له (حول النقد)، وذلك لأن استكشاف الأعمال الأدبية بتحليلها بغية الوصول إلى غايات أدبية طموحة أشبه مايكون باستثمار خُطِّطَ له بذكاء فتحقق منه الربح الوفير. والربح فى مثالنا نجده داخل فكر المؤلف أو فى وجدان قرائه أو فى التعرف على مجتمعه، وبالدراسات المسهبة فى الأخلاق والعقيدة وعلم النفس وهكذا.

لكن جانبـا من استكشاف البنية العميقة فى النقد البنيوى يتصل بالمجتمع يعد صورة من مبحث مابعد النقد، لأننا - باستطرادنا فى موضوعات عامة - لانستطيع أن نقدر العمل الأدبى الجيد البناء المحتوِى على براهين تدل على أصالته وقيمته الفنية حق قدره وتميزه عن غيره من الأعمال.»(٦٧)

أدركت مبلـغ حرص الأستاذ Allan Rodway (آلان رودواى) على التأكيد على اتساق اللغة والمصطلح دلاليا، فالأساس فى النقد الحكم والتحليل. ومن خـلال هذا الاتساق بين اللغة والمصطلح حكم الباحث على

التطور الدلالى للنقد فى الاستعمال المعاصر فوجد أن مدلول النقد قد اتسع باتساع العلوم الانسانية المغذية دراسة الأدب مثل علم النفس وعلم الاجتماع والمدارس الأدبية وتاريخ الأدب. وقد استكشف الباحث من خلال التعرف على الصلة بين اللغة والمصطلح - العنصر الثابت فى دلالة النقد مع ما وجده من تطور هائل فى مفهوم النقد. فوجد أن العنصر الثابت هو الحكم والتحليل. من هذا المنطلق حذف الباحث مالايتسق مع وظيفة النقد، أو حكم بتأخيره فى الأهمية فوجدنا عبارات (الأعمال المعاونة للنقد) و(ماقبل النقد) و(مابعد النقد) و(على هامش النقد).

وهـذا الحكم يتضمن التمرس بدراسة الآثار الأدبية المختلفة رواية ودراية ممايشكل الذوق الأدبى المدرب القادر على إصدار حكم معلل.

تجـد فى هذا المعجم دراسات موضوعية متخصصة عن البلاغة، وعن الخيال، وعن الرمز، وعن الصورة الأدبية، وعن الدراما، وعن الكوميديا.. فتدرك أن التغريب نزعة أفسدت درس الأدب عندنا وليس معنى التصدى لها وإبطال آثارها السيئة أن نكف عن الاستفادة من التقدم الذى أحرزه الغرب، وإنما المقصود أن نحسن الاختيار لما ينفعنا من الغرب وأن نفرق بين الدعاية للغرب وموضوعية علوم الغرب، وأن نكف عن الانبهار بكل ماعندهم والحط من شأن كل ماعندنا، فهذا السلوك لايصدر إلا عن فاقد الثقة بنفسه وأمته وهذا الإنسان الضعيف يكفيه أن يكون مقودا ولا يصلح أن يكون قائدا.

رأيت من خلال درسك مصطلحات درس الأدب أنها لم تكن جامعة مانعة يصدق عليها قول الدكتور طه حسين فى كتابه (فى ذكرى أبى العلاء) «إن فن البيان، أو فن النقد، أو فن البلاغة مما نشأ فى العصر العباسى الثانى، وإنه لم يكن معروفاً عند العرب قبل العصر الثانى لبنى العباس، ومعنى ذلك إنهم كانوا إذا أطلقوا لفظ (البيان) أو (النقد) أو (البلاغة) لم تنصرف هذه الألفاظ إلى علم خاص أو اصطلاح معروف، وإنما كانت تنصرف إلى معانيها اللغوية، وكذلك كانت ألفاظ (المجاز) و (التشبيه) و (التمثيل) وغيرها من اصطلاحات هذا الفن».(٦٨)

فهذه الأسماء المختلفة تطلق على مسمى واحد هو درس الأدب. وقد جرى بين البلاغيين حوار حول أى هذه الأسماء أحق بأن يكون اسما عاما لدرس الأدب.

كان (البيان) أسبق هذه الألفاظ ظفرا بهذا الشرف منذ أن اختاره الجاحظ عنوانا لكتابه (البيان والتبيين). ودلالة البيان تتضمن الفصاحة والهداية وتصلح لأن تطلق على القرآن الكريم والسنة الشريفة والشعر والنثر إنشاء ودرسا؛ لهذه الأسباب وجدنا عبد القاهر الجرجانى يحدثنا فى كتابيه (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) عن علم البيان بمعنى مباحث البلاغة كلها. كما وجدنا ابن خلدون يؤرخ فى مقدمته علوم البلاغة تحت عنوان (علم البيان) وقد توفى الجاحظ سنه ٢٥٥ هـ وتوفى ابن خلدون سنه ٨١٨هـ معنى هذا أن البلاغة سميت (البيان) سبعة قرون.

قال ابن خلدون «فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التى للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف. الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التى تطابق بالفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة، والصنف الثانى يبحث فيه عن الدلالة عن اللازم اللفظى وملزومه وهى الاستعارة والكناية كما قلنا ويسمى علم البيان، وألحقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه أو توريه عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك ويسمى علم البديع. وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم علم البيان.»[٦٩] فابن خلدون فى القرن التاسع الهجرى يقرر إن مصطلح درس الأدب لم يكن تعريفه جامعا مانعا؛ فالبيان اسم لعموم الدرس وهو اسم لجزء منه. ونضيف إن مصطلح البديع صار من القرن الثالث عند الرواة والشعراء والكتاب أى مدرسة البديع مصطلحا عاما لدرس الأدب من زاوية الإبداع، أى العطاء الذى يثرى به الأديب اللغة، وسنقف بك فى الفرقة الثانية على تصور مدرسة البديع الدرس البلاغى. والمقابل لدرس إبداعات الأدباء هو درس مآخذ العلماء على الشعراء، وهو درس اتصل بالنقد لغة ومصطلحا. والمآخذ درس بلاغى اتصل بدرس الشعر منـــذ أقدم نصوص بلغتنا عن درس الشعر، وقد أتى ابن سلام الجمحى فى كتابـــــه (طبقـــات فحول الشعراء) بمصطلح (النقد) على سبيل تمثيل دارس الأدب بالصراف (الناقـــد)، ثـم ستعمل الجاحـــظ (النقد) مصطلحا لدرس الأدب حين قال: «قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعانى..» كما رأيت.

مصطلح درس الأدب بين مدرستين.

رأيت أن المدرسة الأدبيه آثرت (البيان) مصطلحا عاما لدرس الأدب. وقد رأيت من نص ابن خلدون أن (البيان) أطلق أيضا على الصنف الذى يبحث فيه عن الدلالة عن اللازم اللفظى وملزومه، فصارت دلالة (البيان) يراد بها مرة عموم درس الأدب، وأخرى يراد بها أحد أبواب درس الأدب خاصة.وقد استدركت المدرسة الكلامية هذا العيب ومعلمها الذى أثاره هو سراج الدين يوسف بن أبى بكر بن محمد بن على، أبو يعقوب السكاكى الخوارزمى (٥٥٥ - ٦٢٦هـ) وأبرز خصائص هذه المدرسة: وضوح تأثير المنطق والفلسفة على أصحابها فاهتموا بالحدود والتعريفات والتقسيم المنطقى فى تحديد موضوعات البلاغة وحصرها وتبويبها.

عرف السكاكى بكتابه (مفتاح العلوم) وقد درس فى القسم الأول علم الصرف وما يتصل به من الاشتقاق الصغير والكبير والأكبر، وجعل لقسم الثانى لعلم النحو، أما القسم الثالث فخص به علم المعانى واعتبره أهم علوم البلاغة ثم علم البيان، وقد ألحق بهما نظرة فى الفصاحة والبلاغة ودراسة للمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية. وسمى اللاحقون الدراسات البديعية علما. فصارت البلاغة مشتملة على هذا التقسيم إلى يومنا. والبلاغة عند السكاكى: (هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها.)

تجتمع المدرستان؛ الأدبية والكلامية على أن (البيان) أو (البلاغة) غير النقد فعلم البيان أو البلاغة دراسة أسلوبية تلتمس القواعد باستقراء النصوص الأدبية وتصوغ هذه القواعد صياغة علمية، وتدلل على صحتها بالشواهد الأدبية من القرآن الكريم والسنة النبوية والشعر والنثر، والمثل الأعلى لهذا الدرس عند المدرستين القرآن والسنة النبوية فى الألفاظ والتراكيب والصور شكلا، وفى قيم الكتاب والسنة مضموناً. وهنا تفترق البلاغة أو البيان أو البديع عن النقد. فالبلاغة أو البيان أو البديع درجة الإبداع وهى درجة التفرد الفائقة درجة الصواب، وغنى عن البيان أن النقد متصل لغة ومصطلحا بالمعيب وهو دون الصواب فهو باب المآخذ فى درس الأدب أو هو ما قبل البلاغة.

النقد مجاله الشعر والنثر، وغير متصل بالقرآن والسنة، وهذا يعنى أن مجاله أضيق من مجال علم البيان أو البلاغة أو البديع.

النقد متصل بالذوق الأدبى اللماح حين يلمح الظاهرة الأدبية، وهو عرضه للتغيير. والبلاغة أو علم البيان يصدر عن الذوق الأدبى حين ينضج ويقنن ويقتدر على جمع الشواهد الكثيرة الدالة على صحة الظاهرة الأدبية.

النقد مجاله الشعر والنثر بأى من المضمونين الجاهلى والإيمانى. أما البلاغة فمجالها كل التراث الأدبى (الكتاب والسنة والشعر والنثر) بشرط صدوره فى الشعر والنثر عن المضمون الإيمانى. فمجال البلاغة أرحب من النقد آثاراً وأشمل أحكاماً. ومجال النقد أشمل من مجال البلاغة

مضمونا. ولكن المضمون الجاهلى مرغوب عنه. لهذه الأسباب ارتبط النقد بالدعاوى التى لم تستقر أو يرغب عنها، وارتبطت البلاغة بما تقرر لدى دارسى الأدب. وكثيرمن دعاوى النقاد الصالحة التى استقرت صارت مسلمات فى الدرس البلاغى.

والنقد والبلاغة متصلان بالقيمة، أما البلاغة فتتعامل مع قيم الحق والخير والجمال المقررة وأما النقد فدعوة إلى بعض هذه القيم.

فالنقد أكثر جـرأة وأحرص على التجديد من البلاغة لهذا كان النقد جزءاً من الأدب الإنشائى وليس مقصوراً على درس الأدب، ولهذا أيضا كان الأديب أول ناقد لعمله الأدبى.

أما دارسو الأدب القدماء فقد شاع عندهم إطلاق (البيان) أو (البلاغة) على درس الأدب عامة، فإذا كان الدرس الأدبى قاصرا على الشعر أطلقوا عليه (النقد) كما رأينا عند محمد بن سلام الجمحى فى طبقات فحول الشعراء، ونقد الشعر لقدامه بن جعفر، وعيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوى. وإذا كان الدرس مبنيا على نص القرآن الكريم سموه بيانا وإعجازا كما رأينا فى إعجاز القرآن للباقلانى وكتابى عبد القاهر الجرجانى (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز).

ويختلف الأمـر فى التفريق بين النقد والبلاغة عند المحدثين، ونذكـرك بتفريـق د. محمـد زغلـول سـلام بين مصطلحى النقـد الأدبـى والبلاغـة، وموقف الأسـتاذ محمد خلف اللـه أحـمـد،

وهجوم د.محمد مندور على البلاغة فى كتابه النقد المنهجى عند العرب ثم هجومـــه على الأستاذ محمد خلف الله أحمد فى كتابه (فى الميزان الجديد). وتأصيل الأستاذ محمد خلف الله للخلاف فى كتابه (من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده) -الخلاصة إن للاختلاف بين لنقد والبلاغة عند المحدثين أبعاداً غير الأبعاد التى ذكرناها عند القدماء.

يمثل الأستاذ أمين الخولى مع الأستاذ محمد خلف الله أحمد مدرسة المحافظين على التراث الأصيل فى درس الأدب، الرافضين تبديده بأية صورة وتحت أى مسمى، الداعين إلى فهمه، المؤمنين بأنه يحتوى كنوزاً واجبنا كشفها وعرضها بصورة تليق بها؛ وهى كنوز تحوى بحوث فى علم النفس وعلم الاجتماع عالية القيمة ومنقطعة النظير فى أوانها.

إن ما أثرناه من خلاف بين المحدثين حول النقد والبلاغة مرتبط بقضية هى : (درس الأدب من خلال القومية والعالمية فى ذهن دارس الأدب) البلاغيون يقدمون القوميه على العالمية، والنقدأدبيون يقدمون العالمية على القومية. والقضية فى وضعها الصحيح: إحراز البطوله توميا مؤهل لإحرازها عالميا؛ فى الألعاب الرياضية، وفى فنون المسرح والسينما والرسم والنحت هذا حكم نقره جميعا، فلماذا نختلف على تطبيقه فى مجال الأدب ودرسه؟!.

تجتمع مصطلحات درس الأدب حول قضية هامة وهى أن كلا منها يقوم على حكم أدبى؛ يصدر عن العلم بقيم الجماعة الخلقية والجمالية المختزن فى لغتها، والعلم بمواطن الحسن فى اللغة مفردات وتراكيب بعد استيفاء شرط الصواب؛ فالبلاغة درجة التفرد والتميز فى الإبداع.

كما تجتمع هذه المصطلحات على أن أصحابها لا يصدرون الحكم إلا بعد دراسة للنص بأسباب استند عليها هى بمثابة الدستور والقوانين:

أولها : **التفسير** ويجب أن يصدر المفسر عن إدراك واع لمثلث الأدب: -

(١ - أديب، يصنع ٢ - أدبا ٣ - لجمهور) وبمصطلح آخر:

(١ - خطاب ٢ -أنتجه منتج ٣ - لقابل) والتفسير فى حقيقته تحليل مضمون النص بالإجابة عن عدة أسئلة : مَنْ صاحب الخطاب، ومتى كتب أو أنشأ خطابه؟ وكيف أنشأه؟ وماذا أراد بهذه الصورة وبهذا التركيب، وبهذا التعريف وبذاك التنكير، ولماذا قدم؟ ولماذا أخر؟ وَصِلَة كل ذلك بالمعنى هل تحققت الإصابة بالإقناع والتأثير والإعجاب..؟

ثانيها التأويل : قد يدرك المفسر أن المنتج أراد بخطابه معنى وراء ظاهر النص وقد جرت عادة الأدباء أن يرمزوا، والمرأة -لأنها أم، وحبيبة، وابنه، وأخت، وهى جديرة بالحب والرعاية فى كل هذه الأحوال- صالحة دائما أن تكثف المعانى فى شخصيتها، لهذه الأسباب كانت رمزا للوطن فى كثير من الأعمال عند كثير من الكتاب فزينب هى مصر فى زينب لهيكل، وسنيه هى مصر فى عودة الروح للحكيم، وأمينة هى مصر فى ثلاثية نجيب محفوظ، وفؤادة هى مصر فى شئ من الخوف لثروت أباظة.

أما الزواج فهو العقد الشرعى بين الحاكم والمحكوم (انتخاب رئيس الجمهورية.) وعتريس هو شخصية الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر.وتجد الأذان فى مسرحية السلطان الحائر للحكيم يتكرر ذكره.لقد أراد أن يقول له: مصر مؤمنة فلا تدخل عليها الشيوعية إنك تخالف

الدستور الذى انتخبناك على أساسه ؟! وتجد أن كاتب القصة القصيرة والرواية فى اليمن وهو زيد مطيع دماج يرمز لليمن بشخصية (فاطمه) إشارة إلى تعلق اليمنيين بآل البيت.

ألا ترى معى أن التفسير قد يفضى إلى التأويل، وأن من صور التأويل استكشاف الرمز. وهناك صور أخرى نوقفك عليها فى دراستنا علم البيان والذى نريد أن نسجله أن للتأويل أسبابا، ويحكمه قانون، ويدل عليه السياق.

ثالثا التعليل : والحكم الأدبى كالحكم القضائى، يمكن استئنافه إذا أمكن الطعن فى الأسباب التى بنى عليها. معنى هذا أن الأحكام الأدبية عرضه للاستئناف فهى مرتبطة بالذوق الأدبى؛ والذوق الأدبى متغير، متفاوت، وقد يصاب بآفة الولاء لغير القوم. من هنا كان الاحتكام إلى العلم باللغة والتراث رواية ودراية لإثبات صحة الحكم بالتحليل والتعليل والموازنة. والأمر فى الحكم الأدبى غير قاصر على دارسى الأدب، فالموهبة الأدبية لها مظهران؛ إبداعى ودرسى. وخير الدارسين من توفرت فيهم الموهبة بمظهريها. قال المتنبى مصورا تنافس العلماء والأدباء على العلم باللغة:

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

أما توفيق الحكيم فقد مارس درس الأدب فى العديد من مقالاته وكتبه وأحاديثه. والعملان الكبيران له فى درس الأدب هما كتاباه (فن الأدب) و(التعادلية) وتجده فى (فن الأدب) يسمى درس الأدب نقدا مرة وبلاغة مرة أخرى مقرا إطلاق مصطلح (النقد) على درس الأدب فى العصر الحديث عامة، ومصطلح (البلاغة) على الدراسة التراثية لدرس الأدب العربى قبل مطلع العصر الحديث. وكم كان منصفا حين أعلن فى (فن الأدب) استفادته من البلاغة العربية فى تأليفه المسرحى.

الباب الأول فى فن الأدب عنوانه (الأدب ويداه)[٧٠] الخلق الذى يبتكر، والنقد الذى يفسر يقول تحت العنوان الأخير: الجمال فى الفن كالجمال فى المرأة... ما السر فى امرأة قد استكملت شروط الحسن وليست بحسناء، وأخرى شابتها عيوب وهى السحر والفتنة؟!

فى المـرأة والفن، هناك شىء لا ندرى ما هو، يخرج على كل قاعدة، ويهزأ بكل أصل: هو الذى يجعل الجميل جميلا.. من أجل هذا انحرف النقد عن المذهب الموضوعى إلى المذهب الشخصى، وطلع نفر من النقاد يقولون إن الذوق هو الحَكَم والميزان. ولكن ما الذوق؟.... هوأيضا مشكلة تبرز على الفور:

لـو عرَّفنا الذوق وحددناه لأصبح هو الآخر أصلا من الأصول، ومقياسا ثابتا جامدا، يتحطم عند أول اختبار، وننزلق إلى المذهب الموضوعى مرة أخرى دون أن نشعر. فلنكتف إذن بالقول إن الذوق ملكة شخصية تفرز الزائف من الصحيح، والحسن من القبيح! ولكن ما دامت ملكة شخصية، كيف نفرز أيضا الشخص الذى ركبت فيه هذه الملكة، وكل الناس لا شك قائلون إن الذوق نابت مع أظافرهم؟..

ونحن لـو استطعنا أن نتصيد من غمرة الناس تلك اللؤلؤة الفريدة، وهى الناقد صاحب الذوق الذى لا ينازع ولا يدافع لكانت فرحتنا به أضعاف فرحتنا بمن سينقد من الأدباء والفنانين.. لا، ليس للذوق الشخصى ضابط.

ولعـل خير منهج للناقـد أن يجمع فى نقده بين شتى الاعتـبارات، ويؤلف بين مختلف النظرات، فيختار الأثر من بين مختلف الآثار بذوقه كاشفا عن نواحى جمال، ثم يحلله بغربال علمه، ليخرج لنا ما انطبق فيه على الأصول، وما لم ينطبق. وذلك لمجرد التحليل والبحث والدرس. لا لإصدار الأحكام بناء على هذا الاعتبار وحده، فاذا فرغ من ذلك بقى أمامه الشطر الأجل من عمله النقدى، وهو تقويم الأثر بقيمته فى المحيط الأدبى القومى أو الانسانى، ووضعه فى مكانه من (خانة) النوع، ومقارنته بالسابقين له فى ذلك السجل؛ مبينا مدى تأثره إياهم، وبلغ اتفاقه معهم فى المذهب، أو اختلافه عنهم فى المسلك. أمكرر هو أم مجتهد فى باب معروف؟ أم هو فاتح أو ضارب فى طريق غير مألوف؟.

ألا تشاركنى الرأى ن توفيق الحكيم يدعو إلى الدرس البلاغى، ويعلن عدم ثقته فى النقد الأدبى. إنه يدعو إلى الدراسة الأسلوبية المتنامية لأعمال الأديب المصاحبه لنتاجه القادرة على استكشاف طريقته فى الإبداع وتقويمها.

هوامش الفصل الرابع

(١) مبادئ علم الجمال - شارل لالو ترجمة مصطفى ماهر ص٥.

(٢) الصناعتان لأبى هلال العسكرى ط صبيح بدون تاريخ ص٨.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١ /٦

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ١ /٨٥

(٥) البيان والتبيين للجاحظ ١ /٩٧

(٦) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٠٦

(٧) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١١٥

(٨) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١١٣، ١ /٢٢٠.

(٩) البيان والتبيين للجاحظ ١ /٢٤٣.

(١٠) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١١٢.

(١١) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١١٤.

(١٢) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٣٦.

(١٣) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١١٥.

(١٤) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٠٤.

(١٥) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٣٧.

(١٦) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٧٩.

(١٧) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٦١.

(١٨) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٩١.

(١٩) القاموس المحيط (ب ل غ).

(٢٠) انظر الخبر فى البيان والتبيين للجاحظ ١ /٣٩٤ س١٤ وتجد أن غيلان وظف بيانه لمدح النهر مرة، ولذمه مرة أخرى وهو فى الحالتين ينافق الواليين. وقد قال الجاحظ تعقيبا على هذا السلوك: «فالذين كرهوا البيان إنما كرهوا هذا المذهب».

(٢١) اتصل بالمنصور والمهدى.

(٢٢) انظر صلته بأبى عبيد الله الكاتب فى البيان والتبيين ١ /٢٩٥

(٢٣) البيان والتبيين ٢ /٢٥٦.

(٢٤) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام ط دار المعارف ص ١٤٧، ١٤٨.

(٢٥) توفرت دراسات قيمة فى هذا الموضوع منها البلاغة العربية فى دور نشأتها للدكتور سيد نوفل، والبلاغة تطور وتاريخ للأستاذ الدكتور شوقى ضيف.

(٢٦) البيان والتبيين للجاحظ ١ /٨٨.

(٢٧) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٣٧.

(٢٨) البيان والتبيين للجاحظ ٤ /٢٩.

(٢٩) البيان والتبيين للجاحظ ١ /٨٣.

(٣٠) البيان والتبيين للجاحظ ١ /٨٣.

(٣١) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٤٤.

(٣٢) البيان والتبيين للجاحظ ١ /١٣٧.

(٣٣) البيان والتبيين للجاحظ ١ /٢٤٨.

(٣٤) الحيوان للجاحظ ٣ / ١٣٠.

(٣٥) البيان والتبيين للجاحظ ٣ / ٢٩.

(٣٦) الحيوان للجاحظ ٧ / ٧.

(٣٧) الحيوان للجاحظ ١ / ٩١.

(٣٨) الحيوان للجاحظ ١ / ٩٢ - ٩٣.

(٣٩) الحيوان للجاحظ ١ / ٩٤.

(٤٠) الرسالة للإمام الشافعى مطبعة مصطفى محمد ص١٦.

(٤١) انظر مقالات الاسلاميين للأشعرى ١ / ٣٠٩، ٣١٠.

(٤٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١ / ١٦١. وسبق إيراد العبارة.

(٤٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ١٥، والحيوان ١ / ٣٣٥.

(٤٤) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ١٦.

(٤٥) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ١٩.

(٤٦) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ١٤٧.

(٤٧) الحيوان للجاحظ ١ / ٣٤١.

(٤٨) الحيوان للجاحظ ١ / ٣٤٣.

(٤٩) مقالات الاسلاميين لأبى الحسن على بن اسماعيل الأشعرى تحقيق محمد محى الدين ط ١٩٥٠ - ١ / ٢٤٨.

(٥٠) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٨٨.

(٥١) البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٩٥ خبر العمانى الراجز.

(٥٢) نفسه ١ / ١٤٥.

(٥٣) نفسه ١/١٠٥.

(٥٤) فن الأدب -توفيق الحكيم ط النموذجية ١٩٥٢ص٢٠.

(٥٥) لسان العرب (ن ق د).

(٥٦) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ص١٧.

(٥٧) البيان والتبيين للجاحظ١/٧٥.

(٥٨) انظر على سبيل المثال لا الحصر كتاب (ثقافة الناقد الأدبى) للدكتور محمد النويهى ط لجنة التأليف والترجمة والنشر١٩٤٩. و(مقالات فى النقد الأدبى) اختيار وترجمة د.ابراهيم حماده ط دار المعارف بمصر ١٩٨٢.

(٥٩) العمده لابن رشيق٢/٨٤.

(٦٠) نقد الشعر -قدامه بن جعفر ط الجوائب بالقسطنطينية٣٠٢هـ ص١٢ص٢.

(٦١) النقد المنهجى عند العرب د.محمد مندور ط نهضة مصر. بدون تاريخ ص٣٢٠،٣٢١. وانظر تحامله على أبى هلال العسكرى ص٣٢٢-٣٢٣.

(٦٢) نفسه ص ٣٢٣.

(٦٣) أثر القرآن فى تطور النقد العربى د.محمد زغلول سلام. التقديم بقلم الأستاذ محمد خلف الله أحمد ط دار المعارف بمصر.

(٦٤) نفسه - المقدمة بقلم د.محمد زغلول سلام.

(٦٥) البلاغة والنقد بين التاريخ والفن د.مصطفى الجوينى ط الهيئة المصرية للكتاب١٩٧٥ص١٧٧.

(٦٦) نفسه ١٦٧.

(67) A dictionary of Modern Critical Terms, Edited by Roger Fowler.

Criticism an essay by Allan Rodway, Reader in English, University of Nottingham.
Printed in Great Britain 1973 by Routled and kegan Paul, page42_44.

(٦٨) فى ذكرى أبى العلاء للدكتور طه حسين.

(٦٩) المقدمة لابن خلدون ط التقدم بدون تاريخ ص ٤٥٧.

(٧٠) فن الأدب - توفيق الحكيم ط النموذجية ١٩٥٠ ص١٠-٢٣.